THE WHITE PEOPLE

الوجوه البيضاء

آرثر ماكين

ترجمة: د/ أحمد تركي

ترجمات

سادر الكتب

آرثر ماكين

الوجوه البيضاء

رواية

دارك للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

تمهيد

- الشعوذة والقداسة، هما الحقيقتان الوحيدتان، كلتاهما حالة من النشوة، انسحاب من الحياة المُعتادة.

قالها أمبروز، فاستمع إليه كوتجريف باهتمام.

جاء بكوتجريف صديق مُشترك، إلى منزل يتداعى بإحدى الضواحي الشمالية، عبروا حديقة قديمة ليصلوا إلى الغرفة التي ينعزل فيها أمبروز عن العالم، فيَنعِس ويحلُم فوق كُتبه.

استطرد أمبروز:

- بالطبع، يُعرَف السحر بأثره على أولاده. هُناك كثيرون، حسبما أظن، ممن يأكلون كسرات خبز جافة ويشربون الماء فحسب، ببهجة لا نهائية، أكثر حدة من أي تجربة يمرُّ بها إنسان ذواقة ذو حسٍ مُرهف تجاه الطعام والشراب.

- تتحدث عن القديسين؟

- نعم، وعن الخطَّائين كذلك. أظن أنك تقع في

خطأ التعميم بتقييد عالم الروحانيات بالخير الأعظم، لكن للشر الأعظم بالضرورة نصيبه من الأمر. حتى الإنسان الشهواني، الفاسق إلى حدٍّ ما، لا يُمكن أن يُصبح خطاءً عظيمًا أكثر من إمكانية كونه قديسًا عظيمًا. مُعظمنا كائنات لا تُبالي، مُشوشو الأذهان؛ نتخبط في سيرنا في الأرض دون أن نُدرك معاني ووعي الأشياء، وبالتالي، نعتبر شرنا وطيبتنا أمرين مُتشابهين، وغير ذوي أهمية بنفس القدر في مرتبة تالية.

- وتظن أن خطاءً عظيمًا حينها، سيغدو ناسكًا، كما هو حال أي قديس عظيم؟

- ينبذ العُظماء بكل أطيافهم النسخ الناقصة غير المُكتملة، ويُفضلون الأصول الكاملة. ليس عندي أي شكٍّ أن العديد ممن يُصنفون كقديسين كبار لم يرتكبوا (فعلًا جيدًا) أبدًا، باستخدام الكلمات بمعناها الاعتيادي. وفي المُقابل، هناك من طَرقوا أبواب أعماق الخطايا السحيقة، ولم يرتكبوا في حياتهم أبدًا (فعلًا مُشينًا).

وخرج من الغرفة لوهلة، فالتفت كوتجريف إلى صديقه، وبدا مسرورًا للغاية وهو يشكره على هذه المُقابلة.

قال كوتجريف:

- رجل مُسلٍ، لم أرَ مجذوبًا من مثل هذا النوع من قبل.

عاد أمبروز بالمزيد من الويسكي، وصب للرجلين الشراب بكل تحضر، سب بعدها بضراوة جماعة المُمتنعين عن الخمر، وهو يوزع الماء الفوار، ثم صبَّ لنفسه كوبًا من الماء، وكان على وشك استكمال مُناجاته لنفسه، حين قاطعه كوتجريف:

- أتعرف؟ لا يُمكنني تحمل هذا، مُفارقاتك متوحشة جدًّا. ربما يكون الرجل خطَّاءً كبيرًا دون أن يرتكب أي خطيئة! بحقك!

فقال أمبروز:

- أنت مُخطئٌ تمامًا، أنا لا أصنع المُفارقات، أتمنى بجدية لو أستطيع فعل ذلك، قلت فحسب أن رجلًا يملك تذوُّقًا مُرهفًا تجاه النبيذ عالي الجودة، لن يقرب أبدًا الجعة الرخيصة، هذا كل ما بالأمر. كلامي أقرب للحقائق البديهية من المُفارقات، أليس كذلك؟ ملاحظتي باغتتك لأنك لا تُدرك بعد ماهية الخطيئة. الأمر كما أقول لك، هناك نوع من الارتباط ما بين الخطيئة كمفهوم، وبين الأفعال

الآثمة كما نَصِمُها؛ كالقتل والسرقة والزنا وما إلى ذلك. وهي تُشبه إلى حدٍ كبيرٍ العلاقة بين حروف الأبجدية والأدب الراقي. ولكني أؤمن أن سوء الفهم هذا –وهي مُعضلة عالمية- ينبُع بدرجة كبيرة من نظرتنا إلى الأمر باستخدام منظار اجتماعي. فنحن حين نرى رجلًا يرتكب أفعالًا شريرة ضدنا وضد جيرانه، فلا مفرّ أن نعتقد بكونه شريرًا للغاية. وهو كذلك بالفعل، من منطلق اجتماعي؛ لكن ألا تستطيع إدراك أن الشر في جوهره هو مسألة مُنعزلة، شغف لدى روح وحيدة، مُتفردة؟

أُحدثك بصدق، القاتل العادي، بوصفه قاتلًا ودون الأخذ بأي اعتبارات أخرى، ليس مُذنبًا بالمعنى الحقيقي للكلمة، وبأي حالٍ من الأحوال.

إنه بهيمة طائشة، يجب أن نتخلص منها لنُنقذ رقابنا من سكينه. أُفضل تصنيفه مع النمور خيرًا من وضعه مع الخطَّائين.

- كلامك يبدو غريبًا!

- لا أرى ذلك، لا يقتل القاتل بسبب دوافع إيجابية، بل دوافعه سلبية، ينقصه شيءٌ يمتلكه غير القتلة. الشر في مُجمله شيء إيجابي، المشكلة فقط أنه في الجانب الخطأ بالطبع. ربما تصدق

قولي بأن الخطيئة بالمعنى الصحيح لها مسألة في غاية النُدرة؛ ويُحتمل كذلك أن عدد الخطَّائين أقل بكثير من أعداد القديسين. نعم، النقطة التي تنطلق منها جيدة جدًّا من النواحي العملية والاجتماعية، فنحن نميل بطبيعتنا للاعتقاد بأن شخصًا ما ذا طباع سيئة جدًّا -بالنسبة لنا- لهو من أعظم الخطَّائين! السرقة مثلًا طبعٌ سيء بالتأكيد، ونحن نجهر أن السارق خطاء عظيمٌ. وهو في حقيقة الأمر، إنسان غير مُتحضر فحسب، لن يكون قديسًا بالطبع؛ ويُحتمل أن يكون -وهذا يحدث- أفضل بكل الطرق من آلاف البشر الذين لم يكسروا وصية واحدة من الوصايا العشر طيلة حياتهم. وأعترف أنه مصدر إزعاج لنا، وسنحتجزه غالبًا حين نُمسك به، ولكن؛ ارتباط أفعاله المُزعجة المُعادية للمجتمع بالشر من أضعف ما يكون.

بدأ الوقت يتأخر، وقد استمع الرجل الذي جاء بكوتجريف لكل هذا الكلام من قبل، إذ أنه أيَّد الكلام بابتسامة حكيمة لطيفة، أما كوتجريف فبدأ يتفكر في تحول ذاك المجذوب إلى رجلٍ حكيمٍ، قال بعدها:

- أتعرف؟ لقد أثرت فضولي العارم، إذًا نحن لا نفهم طبيعة الشر الحقيقية حسب ظنك؟

- لا، لا أظن ذلك. نحن نُعظِم ونُبخِس من قدره، الأمران في ذات الوقت، وعندما تُخرَق قوانينا الاجتماعية الصُغرى؛ أعني التنظيمات الضرورية للغاية والمُلائمة والتي تعمل على إبقاء البشر مُرتبطين ببعضهم، لمراتٍ معدودة، يُصيبنا الهلع بسبب غلبة الخطايا والشرور. وهذا هُراء فعليّ. فلنأخذ السرقة كمثال؛ هل نخاف بأي شكلٍ من الأشكال من ذِكر روبن هود، وقُطاع طرق الأراضي المُرتفعة في القرن السابع عشر، وفُرسان المُستنقعات(1) النهابين، أو المروجين بشراسة للشركات الجديدة في أيامنا هذه؟

وعلى الجانب الآخر، نحن نقلِّل من قدر الشر في أحايين كثيرة، ونُلصق أهمية هائلة بخطيئة التطفل على ما في جيوبنا، أو على نسائنا، لدرجة أننا نسينا مقدار شناعة الخطيئة في الحقيقة.

فقال كوتجريف:

- وما هي الخطيئة؟

- أظن أني سأُجيبك بسؤالٍ آخر: ما هو شعورك حين يبدأ قطك أو كلبك بالتحدث إليك؟ أسألك بجدية، أو حينما يُجادلك عن لهجات لغات البشر؟ سيغشاك الرعب غالبًا، أنا متأكد. وماذا لو تغنَّى

الورد في حديقتك بأغنية غريبة؟ سيُصيبك الجنون. أو افترض أن الأحجار في الطرقات بدأت تتضخم أمام عينيك، وأن الحصى الذي رأيته بنفسك ليلًا قد أنبت أزهارًا حجرية وأغرق الدنيا في الصباح؟

- هذه الأمثلة ستمنحني انطباعًا ما عن الطبيعة الحقيقية للخطيئة؟

هُنا قال ثالثهما، والذي كان ساكنًا حتى تلك اللحظة:

- انظرا، لا أعرف كيف سينتهي بكما المآل، ولكني سأعود إلى بيتي، لقد فاتني الترام المجرور بالخيول، وسأعود سيرًا.

توطد استقرار أمبروز وكوتجريف بشكل أعمق بعد رحيل الرجل، وغيابه وسط الضباب الصباحي الباكر، وأضواء القناديل الخافتة.

قال كوتجريف:

- كلامك يُبهرني، لم أُفكر في مثل هذا من قبل، لو أن الأمر كذلك، يجب أن نقلِب كل شيء رأسًا على عقب، حينها، سيكون جوهر الخطيئة الحقيقي هو..

قاطعه أمبروز:

- كأن تضرب السماوات العليا بعواصف عاتية، هكذا يبدو الأمر لي ببساطة، كأنك تحاول النفاذ إلى نجم علوي آخر غير أرضنا، وبأسلوبٍ يُحظَر استخدامه، أظنك تفهم الآن لماذا لا يحدث ذلك كثيرًا، هُناك بالتأكيد قلائل أرادوا النفاذ إلى نجوم علوية أو سفلية أخرى، وبطرق ممنوعة أو مُجازة. يحمل الناس في مجموعهم رضا وفيرًا بالحياة كما يجدونها، ولهذا نجد القليل من القديسين، وخطَّائين بعدد أقل بكثير، بالمعنى المعروف لك، وكذلك.. العباقرة في غاية الندرة، وقد تتشاطر شخصية العبقري جوانب من الناحيتين السابقتين.

نعم، أن يكون المرء خطَّاءً عظيمًا، فذاك أكثر صعوبة من كونه قديسًا عظيمًا، هذا مُحتمل، أقول مُحتمل!

- هل تقصد أن هُناك أمرًا ما ورائي بشكل كامل حين نتحدث عن الخطيئة؟

- بالضبط، تحتاج القداسة لمجهودٍ عظيمٍ، لكنها تعمل على خطوط رسمتها الطبيعة ذات مرة، في مجهودٍ مبذولٍ لاستعادة النشوة القديمة قدم خروج آدم من الجنة، أما الخطيئة فهي جهدٌ مبذول لاستعادة النشوة والمعرفة التي يختص بها الملائكة

وحدهم، وببذل ذلك المجهول، أضحى الإنسان شيطانًا.

قلت لك أن القاتل المحض ليس مُذنبًا بناءً على ذلك، هذه ما أراه حقًّا، وكذلك قد يُصبح الخطَّاء قاتلًا، خُذ جيل دو ريز (2) كمثال.

وبذلك ترى أن الخير والشر أمران غير طبيعيين بالنسبة لما هو عليه الإنسان المُعاصر –الكائن المُتحضر والاجتماعي- ولكن الشر غير طبيعي بمعانٍ أكثر تعمُقًا؛ سعي القديس لاستعادة هدية فقدها، ومحاولة المُذنب الاستحواذ على شيء لم يكن ملكه أبدًا. باختصار: الإنسان يُكرِّر خروجه من الجنة.

سأله كوتجريف:

- أأنت كاثوليكي؟

- أنا عضو في الكنيسة الإنجيلية المُضطهدة.

- إذًا، ماذا عن النصوص التي تضع اعتبارًا للخطيئة يُخالف ما تعتبره مجرد قصور فهمٍ مُبتذَل؟!

- جميلٌ، لكن في أحد المواضع في الكتاب

المُقدَّس، يأتي ذِكر المُشعوذ مع الخطيئة في ذات الجملة، أليس كذلك؟(3) هذا يُشير إلى الفكرة المُفتاحية.

تمهل قليلًا، فكر معي مليًا، هل تتخيل أن إفادة كاذبة قد تُنقذ حياة إنسان بريء، هي خطيئة؟!

-كلا..

جيد جدًّا، إذًا فلن نستثنى الكاذب المحض مما تحدثنا عنه، الخطيئة ترتبط (بالمُشعوذين)، فوق كل شيء، الذين يستخدمون مادية الحياة، ويستعينون بالعيوب الطارئة على الحياة المادية كأدواتٍ توصلهم لأغراضهم الآثمة. ودعني أزيدك، حواسنا العليا تبلدت جدًّا، تشبعنا حد الاختناق بالمادية، لدرجة أننا سنفشل على الأرجح في تمييز الآثام الحقيقية حين نُلاقيها.

- ولكن.. ألا يجب أن نُعايش رُعبًا مؤكَّدًا، أمرٌ مُخيف كما سبق وذكرت، كشجرة أو زهرة تُغني، وفي وجود إنسان ذي شرٍ مُطلق؟

- يجب ذلك إذا كانت طبائعنا نقية، سيشعر الأطفال والنساء بالرعب الذي تقصده، وكذلك الحيوانات إن عايشوه، لكن العادات والأعراف،

وكذلك التمدن والتعليم، أعموا وأصموا وحجبوا الأسباب الطبيعية لدى الغالبية منَّا. وسنتعرف في بعض الأحيان على الشرِّ بكراهيته لما هو خيرٌ، لا يحتاج أحدنا ذهنًا بالغ الحدة والذكاء ليُخمِن مقدار التأثير الذي أملته مُراجعات جريدة (بلاكوود) النقدية لأشعار جون كيتس(4)، ودون وعي غالبًا، وكذلك، كقاعدة بالنسبة لي، أشك أن كهنة توفة(5) نفدوا بجلدهم دون أن يُلاحظهم أحدٌ، أو ربما، في حالات مُعينة، كانوا كالخطَّائين، على ذات القدر من فعل الخير.

- ولكنك استخدمت لفظة (دون وعي) حالًا، تصف بها مُراجعات جون كيتس، هل الخطيئة غير واعية دائمًا؟

- دومًا بالتأكيد، لا بُدَّ أن يكون كذلك. إنه كالقداسة والعبقرية في هذا، وفي أمورٍ أخرى كذلك، كبهجة تُصيب النفس، أو نشوة للروح؛ مجهود يتسامون به ليجتازوا الحدود المعروفة. وبذلك، يتعدون حدود الفهم، الملكات العقلية التي تدوِّن مُلاحظات عما سبق، فربما يكون المرء خطاءً بشناعة، وإلى أبعد حد، ولا يُشك في نفسه أبدًا رغم ذلك.

الشر نادر من مُنطلق معناه الحقيقي والمؤكد، وأظن أنه يزداد نُدرة.

قال كوتجريف:

- أُحاول أن أتشبث بما يُعينني على فهم ما تقول، حسب كلامك، أستنتج أن الشر الحقيقي يختلف بشكل عام عما نُسميه (الشر)؟

- تقريبًا. هُناك أوجه تشابه بلا شك؛ تُمكِّننا من استخدام مصطلحات مثل (بطن الجبل(6)) أو (قدم المائدة) بمنطقية مُريحة، وفي بعض الأحيان نتحدث بالطريقتين كما لو كانا لغة واحدة.

تخيل معي عامل منجم قاسٍ، أو عامل إلانة حديد، رجل كالنمر، غير مُدرَب ولا مُتحضِر، يتصرف حسب غرائزه دون غيرها، كالحيوانات، يُحفزه ربع أو نصف غالون من الجعة لبذل مزيد من الجهد، وحين يعود لبيته يرفس زوجة غاضبة وطائشة ليُرسلها إلى حتفها.

إنه قاتل، وكذلك جيل دو ريز كان قاتلًا، لكن أترى الفجوة الفاصلة بين الاثنين؟ (الكلمة).. إذا كنت مُحقًا، وهي هُنا –مُصادفة- نفس الكلمة في الحالتين، لكن المعنى مُختلف جذريًّا، إنه خطأ

لغوي(7) شنيع أن نخلط بين الاثنين، أو كالاعتقاد بأن أي كَلِمتين تنتهيان بنفس اللاحقة فلا بُدَّ أنهما يرتبطان في أصلهما اللغوي.

وذات التشابه الضعيف – بلا شكٍّ- يسري على كل الخطايا الاجتماعية، وعلى الخطايا الروحانية الحقيقية، في بعض الحالات مثلًا، ربما لا ينجح المُدرسون في قيادة التلاميذ إلى حياة أفضل، ولا يُخرجونهم من الظل إلى الحقيقة.

إذا عرفت شيئًا من علم اللاهوت، سترى أهمية كل ما أقصه عليك.

علق كوتجريف:

- يؤسفني ما سأقوله، لكني لم أخصص وقتًا من عُمري لدراسة اللاهوت، لطالما تعجبت من الأساسات التي يدعي بسببها علماء اللاهوت كون دراستهم المُفضلة هي (علم العلوم)؛ لأن كتب اللاهوت التي طالعتها بدت لي مُهتمة بأعمال التقوى الواضحة، والواهنة، أو بملوك إسرائيل ويهوذا، وأنا لا أهتم بذِكر هؤلاء الملوك.

اتسعت ابتسامة أمبروز حتى بدت أسنانه، وقال:

- علينا أن نتجنب المحادثة اللاهوتية، أُدرك الآن أن مُجادلتك قد تكون مريرة. ولكن.. ربما تُشبه علاقة تواريخ الملوك بعلم اللاهوت، علاقة مسامير نعل عامل إلانة الحديد القاتل.. بالشر.

- دعنا نعُد لموضوعنا الأساسي، تظن أن الخطيئة شيء باطني مُستتر؟

- نعم، إنها المُعجزة الجُهنمية، كما أن القداسة هي مُعجزة علوية. ومن آنٍ إلى آخر ترتقي إلى ذروة نفشل بعدها تمامًا في إنكار وجودها، تُشبه ملاحظة أنابيب الدواسات الكبيرة في آلة الأورغن الموسيقية؛ فهي عميقة جدًّا لدرجة لا يُمكن سماعها. وفي حالات أخرى، قد تُفضي إلى بيمارستان المجاذيب، أو لما هو أغرب من ذلك.

لكن لا تخلط بينها أبدًا وبين التصرفات الاجتماعية الخاطئة المحضة. تذكر كيف فرق بولس الرسول –وهو يتحدث عن (الجانب الآخر)- بين أفعال الإحسان والإحسان(8) نفسه، وإذ يستطيع أحدنا منح كل متاعه للفقراء، يظل الإحسان ينقصه؛ لذا فتذكر، ربما يتمكن الإنسان من تفادي كل الجرائم، وهو خطاء رغم ذلك.

همهم كوتجريف ثم قال:

- أستغرب نفسيتك تلك، لكني أعترف أنها أعجبتني، وأستطيع استنتاج الخاتمة التالية من مُقدمتك: أن الخطاء الحقيقي وكذا أي شخصية مُسالمة يُمكنهما مُهاجمة وضرب أحد المُراقبين، وهما في مثل ذلك سواء؟

- بلا شك؛ لأن الشر الواقعي لا علاقة له بالحياة الاجتماعية وقوانينها، ولو كانت هُناك علاقة؛ فالأمر كله مُصادفة، أو كيفما اتُفق. إنه شغف روحي وحيد، أو شغف روحٍ مُنعزلة، سمهِ كما تحب. وإذا تمكنا صُدفة من فهمه، والإلمام بدلالته الكاملة، ستنغمر قلوبنا بالرعب والخشية.

لكن تلك المشاعر تتميز تمامًا عن الخوف والاشمئزاز المُتعلقين بالمجرم العادي، لأن هذه المشاعر وُجدت أصلًا أو بصورة كبيرة على أساس تعلُّقنا بجلودنا وثرواتنا. نكره القاتل لأننا نكره أن نُقتل، أو أن يُقتل أحدُ أحبَّاءنا. وكذلك، نحن على (الجانب الأخر) نُبجل القديسين لكن لا نحبهم قدر ما نحب أصدقائنا. هل تستطيع إجبار نفسك وإقناعها بأنك كنت لتحب رفقة بولس الرسول؟ هل تظن أن واحدًا منا يستطيع الانسجام مع السير جالاهاد(9)؟

والحال مع الخطائين كما هو الحال مع القديسين، فإذا قابلت رجلًا في غاية الشر، وتعرفت على شره يقينًا، فسيملأ قلبك بالرعب والرهبة، دون شك، لكنك لن تجد سببًا يوجب عليك بغضه.

وعلى النقيض؛ من المُحتمل أنك إذا نجحت في إخراج فكرة الخطيئة من ذهنك، فلربما تجد الفائدة العظمى من مُصاحبة الخطَّائين، وبعد فترة وجيزة ستتساءل: لمَ خفت منه؟ رغم احتفاظه بنفس شناعته.

تخيل إذا غنت الأزهار وزنابق الماء فجآة وفي وضح النهار القادم، إذا بدأت قطع الأثاث تتحرك كأنهم في موكب، كما في قصة جاي دو موباسان(10)!

قال كوتجريف:

- أنا سعيد حقًّا لعودتك لهذه المقارنة، لأني أريد أن أسألك عما يوازي تلك الأفعال المُتخيلة للجمادات في الأفعال الإنسانية، أقصد.. ما هي الخطيئة؟ أعرف أنك أعطيتني تعريفًا مثاليًا، لكني أرغب في مثالٍ ملموس.

قال أمبروز:

- أخبرتك أن هذه الأمور نادرًا ما تحدث..

وبدا أنه يُريد تجنُّب مَنح كوتجريف إجابة مُباشرة:

- مادية العصر، قمعت الطهارة بشكلٍ كبيرٍ، وربما قمعت الشر بشكل أكبر. قد وجدنا في الأرض راحة هائلة، لدرجة أننا لم نعُد نميل للارتقاء ولا الانحدار. يبدو الأمر وكأن أحد طلاب العلم قرر التخصص في دراسة (توفة)، ثم تحول فجأة لدراسة العاديات والآثار القديمة.

تذكر أن عالم الأحافير لا يُمكنه أن يُرينا طائرًا زاحفًا مُجنحًا واحدًا على قيد الحياة.

فقال كوتجريف:

- ولكنك -حسبما أظن- تخصصت في ذلك المبحث، وأعتقد أن أبحاثك قد تنازلت لتعيش في عصرنا الحديث.

- أنت مُسلٍ، هذه حقيقة. حسنًا، أعترف أن تلك الأمور سحبتني إليها شيئًا قليلًا، وإذا أحببت، يُمكنني أن أُريك شيئًا، قد يواكب الموضوع المُلفِت الذي تناقشنا حوله.

وأخذ أمبروز شمعة، أشعلها ثم توجَّه نحو ركنٍ مُعتمٍ بعيد.

رآه كوتجريف يفتح خزانة مكتب مُنخفض الطول مهيب الشكل، ومن تجويف خفي فيها استخرج رُزمة أوراق، ثم عاد إلى النافذة، حيث كان يجلس.

ثم فك ما كان يُغلفهم، ليُخرج كتاب جيبٍ أخضر اللون، وقال:

- هل ستعتني به؟ لا تتكاسل عنه، إنه من الأعمال المُختارة بعناية من وسط مجموعتي، وسيغمرني عظيم الأسف إذا ضاع.

وربت على غلاف الكتاب، ثم استطرد:

- عرفت من كتبت هذه الكلمات. حين تقرأها، سترى أنها تشرح محادثتنا الليلة، هُناك تتمة كذلك، لكني لن أتحدث عنها.

ثم تحدث بطريقة من يُريد تغيير الموضوع مُجددًا:

- هُناك مقالٌ غريبٌ في أحد أعداد مجلة مُراجعات، نُشر منذ عدة أشهر، كتبه طبيب، اسمه دكتور كيورين، حسبما أتذكر.

قال إن سيدة كانت تراقب ابنتها الصغيرة في غرفة استقبال الضيوف من النافذة، وفجأة رأت إطارها يطير ويسقط على أصابع الطفلة.

فقدت السيدة وعيها، واستدعوا الطبيب في وقتٍ ما بعدها، وبعدما جاء وضمد جروح وتشوهات أصابع الطفلة، دعوه للاطمئنان على الأم، كانت تئن من الألم، ثم وجدوا أن ثلاثة أصابع في يدها، يُقابلون نفس الأصابع المُصابة عند ابنتها، قد التهبت وانتفخت، وبعدها، وحسب كلام الطبيب: طفح الصديد والقيح المُلوَّث منها.

ولا زال مُمسكًا بالكتاب الأخضر –بوهن- حين قال أخيرًا:

- حسنًا، خذه.

أحس كوتجريف بصعوبة تخلّي أمبروز عنه، وكأنه استخرجه من كنزٍ له.

- ستُعيده إليَّ، بمجرد أن تنتهي من قراءته.

وخرجا إلى الردهة، ومنها إلى الحديقة القديمة، حيث تهفو رائحة الزنابق باهتة.

هُناك نطاق أحمر واسع من المباني في الشرق، إلى

حيث يتجه كوتجريف، ومن الأرض العلوية حيث يقف، رأى لندن كمشهد عظيم مُخيف، وكأنه في حلم.

---

(1) مجموعة من الهجَّامين الأسكتلنديين بدأ ظهورهم في القرن الرابع عشر، واشتد عودهم في منتصف القرن السابع عشر، نشطوا على الحدود بين إنكلترا وأسكتلندا، حتى زمن الاسترداد عام 1660، بعودة الملك شارل الثاني من المنفى.

(2) Gilles du rais (1405-1440): فارس ولورد من دوقية بروتاني بشمال فرنسا، وقائد بالجيش الفرنسي ومُرافق لجان دارك، حارب معها الإنجليز في حرب المائة عام، اشتهر تاريخيًا بمُمارسة الشعوذة وعبادة الشيطان والقتل الطقوسي والاغتصاب في آخر أيامه، اعترف بقتله لما يربو عن مائة وأربعين طفلًا، أُعدم شنقًا في نانت عام 1440

(3) راجع سفر أعمال الرسل، 8: 9-24، قصة سيمون أو سمعان الساحر السامري

(4) جون كيتس (1795-1821): شاعر رومانسي إنجليزي، هاجمه النُقاد بضراوة في جريدة بلاكوود هو ومجموعة من الشعراء لأسباب سياسية واجتماعية، موجهة ناحية الشعراء صغار السن الذين تلقوا قسطًا ضعيفًا من التعليم، ولا ينتمون للطبقات المجتمعية العليا، فاتهموهم بضعف الإلقاء والقوافي.

والإشارة هنا تأتي لقول لوكهارت -وهو أحد النقاد- موجهًا

كلامه لكيتس: من الأفضل لك أن تكون صيدلانيًا يتضور جوعًا، على أن تكون شاعرًا يتضور جوعًا، عُد يا سيد جون إلى حانوتك، إلى البلاستر والأقراص وعلب المراهم.

ربما لم يدرك كاتب النقد تأثير الكلمات على كيتس، لكنه أصابه بحالة نفسية سيئة، رغم أن كيتس يُعد حاليًا من أعظم الشعراء الإنجليز.

(5) توفة: موقع في بيت المقدس، ذُكر في العهد القديم، كان أتباع الديانة الكنعانية القديمة يُضحون فيه بالأطفال لآلهتهم مولوخ وبعل، بحرقهم أحياء.

(6) ترجمة للمصطلح الإنجليزي foot of the mountain

(7) استعمل المؤلف هنا مُصلح hobson jobson وهو تحريف بريطاني للجملة (يا حسن، يا حسين)، فكان الجنود البريطانيون في الهند يسمعونها من المُسلمين هُنالك، فحوَّلوها إلى كلمات إنجليزية ذات نطق مُشابه، لكن بمعنى مُختلف طبعًا.

(8) " 2 وَإِنْ كَانَتْ لِي نُبُوَّةٌ، وَأَعْلَمُ جَمِيعَ الأَسْرَارِ وَكُلَّ عِلْمٍ، وَإِنْ كَانَ لِي كُلُّ الإِيمَانِ حَتَّى أَنْقُلَ الْجِبَالَ، وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلَسْتُ شَيْئًا. 3 وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي، وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ، وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئًا. " -رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 13

(9) سير جالاهاد أحد فرسان طاولة الملك أرثر المستديرة، وأحد ثلاثة وصلوا للكأس المقدسة، يُقال إنه ابن السير لانسيلوت وإيلاين حاملة الكأس، ويُعرف بأنه أنقى وأكثر

الفرسان كمالاً، حسب الأساطير الأرثرية.

(10) فصة (من يعرف Who knows) المنشورة لأول مرة عام 1890

الكتاب الأخضر

غُلف الكتاب بجلد مغربي(11) ذابل، ذي لونٍ باهت، لكن بدون أي بقع أو خدوش أو علامات استخدام، وكأن من اشتراه في (زيارة إلى لندن) منذ سبعين أو ثمانين سنة ماضية، قد نسيه بطريقة ما، فوضع بعيدًا وغاب عن الأنظار.

تفوح منه رائحة قديمة، لطيفة تتهادى، كالروائح التي تُلازم قطع الأثاث القديمة، لقرنٍ من الزمان، أو يزيد.

الصفحات الأخيرة مُزخرفة برسوم غريبة، صغيرة وملونة بلونٍ ذهبي باهت، وضئيلة الحجم، الأوراق سليمة رغم ما كُتب عليها، وهُناك أوراق أشجار بين الطيات، مُغطاة بأشكال دقيقة رُسِمَت بعد عناء.

"وجدت هذا الكتاب –هكذا بدأت المخطوطة- في درجٍ في المكتب القديم المُقام على رصيف المرفأ.

كان يومٌ غزير الأمطار، فلم أستطع الخروج؛ لذا بعد مجيء الظهيرة، استعنت بشمعة في تفحص المكتب.

امتلأت كل الأدراج تقريبًا بملابس قديمة، لكن أحد تلك الأدراج الصغيرة بدا فارغًا، فتفحصته، لأجد هذا الكتاب مُخبأ خلفه.

لطالما أردت كتابًا مثل هذا، لأدون ما أكتبه فيه، فأخذته، واليوم، صار مُمتلئًا بالأسرار عن أخره.

أمتلكُ كذلك كتب أخرى مليئة بالأسرار، كثيرة وضخمة، كتبتها بنفسي، وخبأتها في مكانٍ آمن؛ وسأكتب هنا عدة أسرارٍ قديمة، وبعض الأسرار الجديدة.

لكن هناك بعضها، لن أدوِّنها أبدًا!

لا يُمكن أن أُسجل الأسماء الحقيقية للأيام والشهور التي اكتشفتها منذ عامٍ، ولا طُرق رسم حروف الأكلو(12)، أو اللغة الشيانية، أو الدوائر الجميلة العظيمة، ولا ألعاب الماو، ولا أغانيهم الرئيسية.

ربما سأكتب يومًا عن كل تلك الأمور، لكن لن أُفصِح عن طُرق مُمارستهم، لأسباب تخصني وحدي.

ويجب ألا أتحدث عن ماهية الحوريات(13)، ولا عن معنى كلمة الدولز، ولا الجيبلو، ولا الفوولاس.

كل هذه الأمور هي أعظم الأسرار سرية، وأنا سعيدة لأني أتذكر ماهيتهم، ولأني أتذكر كم اللغات البديعة التي أعرفها، ولكن، هُناك بعض الأشياء التي أُسميها (أسرار أسرار الأسرار)، ولا أجرؤ على التفكير فيهم إلا وأنا بمفردي تمامًا، فأُغلق عينيَ، وأضع يديَ عليهما، ثم أهمس بالكلمة..

فتأتي ال(ألالا)!

أفعل ذلك في الليل فقط، في غرفتي، أو في غابة معينة أعرفها جيدًا، يجب ألا أصف لكم الطريق إليها، لأنها غابة سرية.

ثم هُناك الشعائر، وكلهم على ذات القدر من الأهمية، لكن بعضهم يُبهج أكثر من الأخرين؛ هُناك الشعائر البيضاء، والخضراء، والقرمزية، وهي المُفضلة بالنسبة لي من بينهم، ولكن هُناك مكان واحد فقط يُمكن للشعائر القرمزية أن تُقام فيه بطريقة صحيحة، رغم أني حاكيت الأمر بطريقة رائعة في أماكن أخرى.

وإلى جانب ذلك، أعرف الرقصات، والمسرحية الهزلية، بل وأديتها مرة أمام أعين أخرين ، ولم يفهموا بالطبع أي شيء مما أفعل.

كنت صغيرة جدًّا حين عرفت لأول مرة بتلك الأمور.

عندما كنت صغيرة، وكانت أمي وقتها على قيد الحياة، يُمكنني أن أتذكر أحداثًا وقعت حينها ومن قبل ذلك، وهي أحداثٌ مُربكة فحسب.

وأتذكر، حين كان عمري خمس سنوات، أو ست سنوات، أني سمعتهم يتحدثون عني، وهم يحسبون أني لم ألاحظ ذلك.

كانوا يتحدثون عن غرابتي، قبل عام أو اثنين، وكيف أن المُربية استدعت أمي لتأتي وتستمع إليّ وأنا أتحدث إلى نفسي، أقول كلمات لا يفهمها أحد.

كنت أتحدث بلغو (الزو)، ولكني لا أتذكر سوى كلمات قليلة جدًّا منها اليوم، لأنها لغة تتعلق بالوجوه البيضاء الصغيرة التي اعتادت التحديق في وجهي، عند رقودي في مهدي.

اعتادوا التحدث إليّ، فتعلمت لغتهم وتكلمت معهم بلغتهم، عن بعض الأماكن البيضاء العظيمة، حيث يعيشون، حيث كل الأشجار والأعشاب بيضاء، وهُناك تلال بيضاء ترتفع شاهقة إلى حيث القمر، تهب عليها رياح باردة، حلمت بتلك الأماكن كثيرًا

بعدها، لكن الوجوه اختفت من ذاكرتي في سني الصغيرة تلك.

ثم حدث أمرٌ عجيب في الخامسة من عمري.

كان الجو حارًا، حملتني المُربية على كتفها، واجتزنا حقل ذرةٍ صفراء.

ثم عبرنا ممرًا، تُحيط بنا غابة، وجاء رجل طويل القامة من خلفنا، وسار معنا إلى أن وصلنا إلى مكان، فيه حوض حوض مياه عميق، وكان الظلام شديدًا، وذا ظلالٍ مُريبة.

وضعتني المُربية على غطاء من طحالب طرية تحت شجرة، وقالت:

- الآن لا يُمكنها الوصول إلى البركة.

فتركتني هناك، وظللت هادئة أراقب ما حولي، ثم خرج اثنان من الماء، ومن الغابة، اثنان جميلان من القوم ذوي الوجوه البيضاء، وأخذا يلعبان، ويرقصان، ويُغنيان.

كان بياضهما في لون القشدة، كلون العاج في ناب الفيل القديم في غرفة الاستقبال بمنزلنا.

كانت أحدهما كانت سيدة جميلة، ذات عينين سوداوين طيبتين، ووجه وقور، وشعر أسود طويل، ابتسمت لزميلها ابتسامة غريبة، وحزينة، فضحك لها، وتقدم نحوها.

لعبا معًا، ورقصا حول البركة مرات ومرات، وظلا يغنيان حتى غلبني النوم.

ثم أيقظتني المُربية بعدما عادت، وكانت تُشبه السيدة بيضاء الوجه التي رأيتها إلى حدٍ ما، فحكيت لها كل شيء، وسألتها لماذا تُشبه تلك السيدة؟

بكت في البداية، ثم ظهر عليها خوف شديد، وشحب لون وجهها، وضعتني مُجددًا على العشب، وحدقت في وجهي، ورأيت الارتجاف يتملك جسدها كله!

ثم قالت إني كنت أحلم، ولكني أعرف أن ما رأيته ليس حلمًا.

ثم جعلتني أعدها ألا أبوح بكلمة مما حدث لأي أحد، وإذا فعلت، سيُلقون بي في الحفرة السوداء .

لم أخف، على الإطلاق، لكن المُربية خافت، ولم أنسَ الأمر أبدًا، لأني كلما أغلقت عينيَ، وساد

الصمت من حولي، وكنت وحدي؛ أستطيع رؤيتهما، مُجددًا، يكونا باهتين، وبعيدين جدًا، وفي غاية الإشراق في ذات الوقت، وتمر مقاطع صغيرة من أغنياتهم إلى رأسي، لكني لا أستطيع أن أغنيها بنفسي.

ثم، عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، خُضت مُغامرة مُنفردة، وحدي تمامًا، مُغامرة غريبة جدًّا لدرجة أني أسميت اليوم الذي حدث فيه الأمر.. (اليوم الأبيض).

ماتت أمي قبل ذلك بأكثر من عام. فكنت أتلقى دروسي في الصباح، وكانوا يسمحون لي بالخروج للتنزه بعد الظهر.

وفي ظهيرة ذلك اليوم، تمشيت في طريق جديد، وجدت فيه جدول ماء قادني إلى منطقة ريفية جديدة، أراها لأول مرة، المشكلة أن ردائي تمزق أثناء عبوري بعض الأماكن الصعبة، فالطريق يمر من بين عدة أدغال كثيفة، ومن تحت فروع أشجار مُنخفضة قريبة من الأرض، وعبر أجمات شائكة وغابات مُظلمة من نباتات زاحفة تملأ التلال.

كان طريقًا طويلًا، طويلًا جدًا.

وكأني سأسير للأبد وما بعده.

وكان عليّ أن أزحف تحت ما يُشبه النفق، حيث كان يسري الجدول، قبل أن تجف المياه فيه.

الأرضية صخرية، وقد التقت الأجام والشجيرات بالأعلى، فكان الظلام.

وتقدمت أكثر وأكثر عبر ظلمة المكان؛ طريق طويل، طويل جدًا.

ثم وصلت إلى تل لم أره من قبل، كنت في دغلٍ موحشٍ، يزدحم بفروعٍ أشجار سوداء، كبيرة مُلتوية، أخذت تمزق جلدي أثناء مُعاناة اجتيازهم، فصرخت، لأن الألم وخزني في جسدي كله، ثم اكتشفت نفسي أتسلق، وأتسلق طريقًا لأعلى يمتد طويلًا، حتى انتهى الدغل في الأخير، فخرجت لأبكي تحت سفح قطعة أرض جرداء، لا يظُلها شيء، فيها أحجار رمادية قبيحة، تتناثر في كل مكان على العشب، هُناك أشجار قزمة، هُنا وهُنالك، مُلتوية بعض الشيء، تخرجن من تحت تلك الأحجار، كما الأفاعي.

تقدمت لأعلى، نحو القمة، لم أرَ مثل تلك الأحجار الكبيرة القبيحة في حياتي، البعض يخرج من الأرض

نفسها، والبعض الآخر دُحرجوا إلى حيث أصبحوا، أو هكذا رأيت الأمر.

ترامت الصخور إلى أقصى ما استطيع إبصاره.

طريق طويل، طويل جدًا.

أبعدت نظري عنهم لأرى الريف نفسه، الغريب للغاية!

كنا في الشتاء، وهُناك غابة سوداء مُخيفة تتعلق في التلال المُحيطة بكل الاتجاهات، تشبه غرفة كبيرة مُحاطة بستائر سوداء، وكان للأشجار شكلٌ مُختلف إلى حدٍّ ما عن الأشكال التي نعرفها.

كُنت خائفة.

وبعدما اجتزتُ الغابة، رأيت هُناك تلالًا أخرى، وكأنها حلقة عظيمة، لكني لم أرَ تفاصيلهم جيدًا، إذ غطَّى السواد والفوور(14) كل شيء، وكذلك الصمت والسكون، السماء ثقيلة، رمادية وحزينة، كقُبة كريهة من الفوور في جذع شجرة أبنوس أسود وعميق.

مشيت على الصخور المريعة، هُناك المئات

والمئات منها، رأيت بعضها كوجوه رجال مقيتين، عابسين، تمعنت في وجوههم جيدًا، وأحسست أنهم سيقفزون خارجين من الصخور ليُمسكوا بي، ليسحبونني معهم عائدين إلى حيث يسكنون، فأبقى حبيسة هُناك معهم إلى الأبد.

وهُناك صخور أخرى كأُناسٍ أموات، راقدين على العشب، وأخرى تُشبه الحيوانات؛ حيوانات زاحفة، مُخيفة، تتدلى ألسنتهم، وآخرون يشبهون كلمات لا يُمكنني البوح بها.

مشيت بينهم، رغم خوفي، وامتلاء قلبي بأغنياتٍ آثمة، وضعوها بداخل رأسي.

وحاولت تحويل وجهي وثنيه بنفس طريقة التواءات وجوههم، ومشيت في الطريق الطويل، وسرت حتى أحببت الصخور، فلم يعودوا يُخيفونني.

غنيت الأغاني التي أتت على بالي؛ أغاني تمتلئ بكلمات لا يجب التحدث بها، ولا تدوينها.

ثم صنعت بوجهي وجوهًا كتلك على الصخور، ولويته كالوجوه الملتوية، ثم رقدت على الأرض كما الأموات، وكذلك توجهت إلى أحد العابسين، فأحطّته بذراعيّ، واحتضنته.

واستمررت في السير عبر الصخور، إلى أن وصلت إلى رابية مُستديرة، في وسطهم، وفي الحقيقة كانت أعلى ارتفاعًا من كونها مُجرد رابية، فطولها يُقارب طول منزلنا، وبدت كحوضٍ ضخمٍ مقلوب، مُستدير وناعم الحواف، وأخضر اللون، ويلتصق بأعلاها حجرٌ وحيدٌ، وكأنه حارس.

تسلقت الجوانب، لكنها كانت حادة الانحدار، فتوجب أن أتوقف، وإلا تدحرجت طوال الطريق إلى الأسفل، فأرتطم بالصخور هُنالك، وألقى حتفي غالبًا.

ولكني أردت الصعود لأعلى قمة الرابية المُستديرة الضخمة؛ لذا.. رقدت على الأرض، وبسطت جسدي ووجهي عليها، وتشبثت يداي بأطراف العشب، وسحبت نفسي لأعلى.

خطوة تلو خطوة!

حتى وصلت إلى القمة!

ثم جلست على الحجر الذي في المنتصف، وتمعنت في كل ما حولي.

أحسست أني مشيت في طريق طويل، طويل جدًّا،

وكأن منزلي على مسافة مائة ميل من هنا، أو ربما في دولة أخرى، أو في مكان غريب مما قرأت عنهم في (حكايات الجنيات) و(ألف ليلة وليلة)، أو كأني اجتزت بحرًا بعيدًا جدًّا، ولسنوات، وقد وجدت عالمًا آخر لم يرَه أحد أو يسمع به من قبل، أو كأني طرت عبر الفضاء، بطريقةٍ ما، فسقطت على أحد النجوم التي قرأت عنهم، حيث كل شيء ميت، وبارد، ورمادي، حيث لا هواء، ولا تهب الرياح.

جلست على الحجر، ونظرت إلى كل ما هو حولي، وتحتي، أجلس فوق برجٍ عالٍ، يتوسط مدينة عظيمة خالية، لأني لم أرَ أيَّ شيءٍ حولي سوى الصخور الرمادية على الأرض، لم أستطع التمييز بين أشكالها من مكاني، لكني رأيتهم مُستمرين على مدى البصر، فأمعنت النظر، فبدوا كأنهم مُرتبون في أنماط، وهيئات، وأشكال.

أعرف أن هذا غير مُمكن، لأني رأيت بعينيّ الكثير منهم يخرج من الأرض، يرتبطون بالصخور العميقة بالأسفل، فأمعنت النظر أكثر، فكان ما رأيته هو دوائر، دوائر فحسب، دوائر كبيرة بداخلها دوائر أصغر، وأهرامات، وقباب، وأبراج لولبية، كلهم في دوائر ودوائر أخرى تدور حول المكان كله؛ حولي حيث أجلس.

وكلما أمعنت النظر، كلما اكتشفت حلقات صخور أكبر، بل وتزداد حجمًا، وحدقت فيهم لمدة طويلة، لدرجة أني رأيتهم يتحركون، يدورون حول أنفسهم، كعجلة كبيرة، وكأني أدور معهم، رغم وجودي في المنتصف.

أصاب رأسي دوار، وهوس، وطغا الضباب وعدم الوضوح على كل شيء، ولمحت شرارات صغيرة بلون أزرق، أما الصخور فرأيت كأنها تنبض بالحياة، وترقص، وتتلوى، مُستمرين في الدوران حول أنفسهم.

تملَّكَني الخوف مُجددًا، وصرخت بعلو صوتي، فقفزت من فوق الصخرة، حيث كنت أجلس، وسقطت.

حينما أفقت، فرحت لأن السكون غلف كل ما حولي، فانزلقت خارج الرابية، وتابعت المشي.

رقصت، عبر الطريق غريب الأطوار، وبنفس الطريقة التي تراقصت بها الأحجار، حينما أصابني الدوار، وفرحت جدًّا؛ لأنني استطعت الرقص مثلهم، فرقصت ورقصت، طوال الطريق، وغنيت أغاني استثنائية، ظهرت فجأة في رأسي.

وأخيرًا.. وصلت إلى حافة ذاك التل المُسطح الهائل، ولم يعُد هُنالك صخور، وأحاط بالطريق مُجددًا دغل كثيف ومُظلم، داخل تجويف، كان مؤذيًا، بنفس قدر سوء الطريق الأول، لكني لم أهتم، لأني كنت سعيدة، فقد رأيت تلك الرقصات النادرة، واستطعت تقليدها.

زحفت عبر الأجمات، نازلة إلى أسفل، فلسعتني نبتة قُراص(15) في قدمي، وأصابتني بألم حارق، لكني لم أهتم كثيرًا، ووخزتني فروع الأشجار والنباتات الشائكة، فما كان مني إلا الضحك، والغناء.

ولما جاوزت الدغل وجدت نفسي في وادٍ مُغلق، مكان سري صغير الحجم، يُشبه ممرًّا مُظلمًا، لا يعرف أحد بشأنه، لأنه ضيق جدًّا، وعميق، والغابة كثيفة جدًّا من حوله.

هُنالك ضفة شديدة الانحدار، وأشجار تتعلق بها، وهُناك تبقى نباتات السرخس خضراء، طوال الشتاء، بينما تكون ميتة وبنية فوق التل، وللسراخس هُناك رائحة حلوة، كرائحة السائل الغني الذي ينز خارجًا من شجر التنوب(16).

وكلما أمعنت النظر، كلما اكتشفت حلقات صخور أكبر، بل وتزداد حجمًا، وحدقت فيهم لمدة طويلة، لدرجة أني رأيتهم يتحركون، يدورون حول أنفسهم، كعجلة كبيرة، وكأني أدور معهم، رغم وجودي في المنتصف.

أصاب رأسي دوار، وهوس، وطغا الضباب وعدم الوضوح على كل شيء، ولمحت شرارات صغيرة بلون أزرق، أما الصخور فرأيت كأنها تنبض بالحياة، وترقص، وتتلوى، مُستمرين في الدوران حول أنفسهم.

تملَّكَني الخوف مُجددًا، وصرخت بعلو صوتي، فقفزت من فوق الصخرة، حيث كنت أجلس، وسقطت.

حينما أفقت، فرحت لأن السكون غلف كل ما حولي، فانزلقت خارج الرابية، وتابعت المشي.

رقصت، عبر الطريق غريب الأطوار، وبنفس الطريقة التي تراقصت بها الأحجار، حينما أصابني الدوار، وفرحت جدًّا؛ لأنني استطعت الرقص مثلهم، فرقصت ورقصت، طوال الطريق، وغنيت أغاني استثنائية، ظهرت فجأة في رأسي.

وأخيرًا.. وصلت إلى حافة ذاك التل المُسطح الهائل، ولم يعُد هُنالك صخور، وأحاط بالطريق مُجددًا دغل كثيف ومُظلم، داخل تجويف، كان مؤذيًا، بنفس قدر سوء الطريق الأول، لكني لم أهتم، لأني كنت سعيدة، فقد رأيت تلك الرقصات النادرة، واستطعت تقليدها.

زحفت عبر الأجمات، نازلة إلى أسفل، فلسعتني نبتة قُراص(15) في قدمي، وأصابتني بألم حارق، لكني لم أهتم كثيرًا، ووخزتني فروع الأشجار والنباتات الشائكة، فما كان مني إلا الضحك، والغناء.

ولما جاوزت الدغل وجدت نفسي في وادٍ مُغلق، مكان سري صغير الحجم، يُشبه ممرًّا مُظلمًا، لا يعرف أحد بشأنه، لأنه ضيق جدًّا، وعميق، والغابة كثيفة جدًّا من حوله.

هُنالك ضفة شديدة الانحدار، وأشجار تتعلق بها، وهُناك تبقى نباتات السرخس خضراء، طوال الشتاء، بينما تكون ميتة وبنية فوق التل، وللسراخس هُناك رائحة حلوة، كرائحة السائل الغني الذي ينز خارجًا من شجر التنوب(16).

ويسري تيار ماء ضعيف أسفل الوادي، كمية ضئيلة جدًّا لدرجة مكنتني من عبوره بسهولة، شربت منه بيدي، طعمه كنبيذ أصفر، ومُشرق، توهجت المياه، وفارت، وهي تمر فوق أحجار حمراء، وصفراء، وخضراء، وكأن المياه حية، هي والألوان على حدٍ سواء.

شربت منها، وشربت مجددًا، بيديّ، لكني لم أستطع نَيْل كفايتي، فانحنيت، وانكببت على الماء، أمتصه لأعلى بشفتيّ، تحسن مذاقه إذ شربته بتلك الطريقة، وجاءت موجة إلى فمي، فقبَّلتني، فضحكت، وشربت مُجددًا، وتظاهرت بكون من قبَّلتني من الحوريات، تسكُن في الماء، كالساكنة في الصورة القديمة في منزلي.

أحنيت رأسي نحو الماء، ووضعت شفتيّ بلطف عليه، وهمست للحورية أني سأعود ثانيَة.

ليست مياهًا عادية، أنا مُتأكدة، كنت سعيدة للغاية حين قُمت واستكملت السير، فرقصت مُجدَّدًا وصعدت إلى أعلى الوادي، تحت التلال المُعلَّقة، وعندما وصلت للقمة، رأيت الأرض ترتفع لأعلى من أمامي، كحائط طويل وحاد الارتفاع.

ليس هُنالك سوى الحائط الأخضر، والسماء.

تفكرت في:

- الآن، وكل أوانٍ، وإلى دهر الداهرين، آمين(17).

ظننت أنني وجدت نهاية العالم بالفعل؛ لأنها بدت كنهاية لكل شيءٍ، لا شيء بعد ذلك، إلا مملكة الفوور، حيث يختفي الضوء حين ينطفئ، وتختفي المياه حين تخطفها الشمس.

تفكَّرت في الطريق الطويل، الطويل جدًّا، ورحلتي فيه، قد وجدت جدولًا فتبعته لآخره، واخترقت أجام وأدغال شائكة، وغابات مُظلمة ونباتات ذات أشواك، وزحفت عبر نفق، تحت أشجار، وتسلقت تشابك أشجار، ورأيت الصخور الرمادية، وجلست وسطهم حين تحولوا، وتراقصوا، ثم أكملت المسير عبر الصخور، وهبطت لأسفل التل، عبر الدغل الذي لسع قدمي، ثم لأعلى عبر الوادي المظلم.

طريق طويل، طويل جدًّا.

تسائلت: كيف سأعود إلى بيتي؟ هل سأجد الطريق؟ وهل سيكون بيتي هُناك؟ أم أنه سيتحول، هو وكل من بداخله، إلى حجارة رمادية، كما حدث في (ألف ليلة وليلة)؟

جلست على العشب، أُفكر فيما سأفعل، كُنت مُتعبة، قدماي مُحمرتان بسبب المشي الطويل، تفحصت المكان، فرأيت بئرًا جميلًا، تحت الجدار العشبي الطويل حاد الانحدار، تُغطي الأرض المُحيطة به أنواع عديدة من الطحالب الخضراء اللامعة، والمُبتلة؛ طحالب كسراخس جميلة صغيرة، وأخرى شبيهة بالنخيل، وشجر التنوب، كلهن ذوات لون أخضر لامع كالجواهر، وتتعلق بهن قطرات من الماء كالألماس.

كان البئر الكبير في المنتصف جميلًا ولامعًا، وعمقه واضح جدًّا، ظننت أنه يُمكنني لمس الرمال الحمراء بالأسفل، لكنها كانت بعيدة جدًّا.

وقفت إلى جوار البئر، ونظرت فيه، وكأني أتطلع إلى نفسي في مرآة، ففي منتصف قاع البئر، رأيت حبات الرمال الحمراء تتحرك وتتقلب طوال الوقت، ورأيت كذلك فقاقيع الماء تتصاعد، لكن سطحها ظل أملسًا، وكأنه كوب مُمتلئ، ويفيض.

كان بئرًا كبيرًا يُشبه حوض استحمام، وباعتبار وجود الطحالب الخضراء اللامعة المتألقة المُحيطة به، بدا كجوهرة بيضاء عظيمة تُحيط بها جواهر خضراء من كل الجوانب.

أتعبتني قدماي، فغمستهما في الماء، بعدما خلعت الحذاء والجوربين.

كانت مياه باردة ناعمة، وعندما أخرجت قدميّ ذهب عني كل تعب، وشعرت أن عليَّ المُضي قُدمًا.

لأبعَد وأبعد من هنا.

أريد أن أرى ما على الجانب الآخر من الحائط.

تسلقته ببطء شديد، وتمسكت بالجوانب، وعند القمة استطلعت الأمر، لأرى أغرب منطقة ريفية أراها في حياتي، أغرب من التل المزدحم بالصخور الرمادية.

وكأن أطفال الليل؛ ديدان الأرض، لعبوا هُنالك بمجاريفهم، فصنعوا التلال والتجاويف والقلاع والحوائط من الأرض المُغطاة بالعشب.

هُناك رابيتان كبيرتان كخليتيّ نحلٍ كبيرتين مُستديرتين، ذواتا عظمةٍ وهَيبةٍ، ثم أحواض مياه مجوفة، ثم حائط مُتعالٍ حاد الانحدار كالحوائط التي رأيتها من قبل بجوار الساحل، حيث الجنود وأسلحتهم الضخمة.

كدت أقع في واحدة من تلك التجاويف الدائرية،

انسحبت الأرض من تحت قدميّ فجأة، فجريت بسرعة نازلة على جانب التجويف، ووقفت بالأسفل، ثم نظرت لأعلى.

وما رأيته بالأعلى اتسم بالغرابة والهيبة.

ليس هُنالك سوى السماء الرمادية ثقيلة الوطء وجوانب التجويف، بينما ذهب كل ما عدا ذلك.

وكأن التجويف هو كل ما تبقى من العالم، وأظن أنه حين يحل الليل سيمتلئ المكان بالأشباح، وأشياء تتحرك، وأشياء أخرى شاحبة تظهر حين يُلقي القمر بضوئه على القاع في أشد ساعات الليل ظُلمةً، والرياح تنتحب في سريانها بالأعلى.

أمرٌ غريبٌ، ومَهيب، ونادر الحدوث، وكأني في معبد آلهة وثنية ميتة، بحجم وادٍ صغيرٍ غائرٍ.

تذكرت حكاية قصتها عليَّ مُربيتي، وكنت صغيرة بعض الشيء وقتها، وهي نفس المُربية التي أخذتني إلى الغابة، حيث رأيت القوم ذوي الوجوه البيضاء الرائعين.

أخبرتني المُربية ذات ليلة شتوية، إذ تضرب الرياح الحائط بالأشجار، فتبكي وتئن بأصوات سمعتها

عبر مدخنة حجرة نوم الأطفال، أنه في مكان أو آخر توجد حفرة مجوفة كالتي أقف فيها الآن بالضبط، يخاف كل الناس من دخولها أو الاقتراب منها، كان مكانًا سيئًا للغاية.

وفي يومٍ من الأيام قالت فتاة فقيرة إنها ستدخل الحفرة، وحاول الناس كلهم منعها فلم يُفلحوا، وذهبت على كل حال.

دخلت الحفرة، ثم خرجت وهي تضحك، وقالت إن لا شيء بالداخل على الإطلاق ما عدا عُشب أخضر وحجارة حمراء وأخرى بيضاء وأزهار صفراء.

وبعد ذلك الحين بقليل، لاحظ الناس أنها ترتدي قرطين من الزمرد، جميلين بما يفوق الوصف، فسألوها: من أين أتيتِ بهما؟ لأنها وأمها فقيرتان إلى حدٍّ ما، لكنها ضحكت وقالت إن قرطيها ليسا من الزمرد على الإطلاق، بل من عُشبٍ أخضر فحسب.

ثم وفي يومٍ تالٍ وضعت على صدرها ياقوتة حمراء، أكثر احمرارًا من أي ياقوتة رآها أحدهم من قبل، وكانت كبيرة في حجم بيضة دجاجة، تتوهج وتتلألأ كجمرة من نار، فسألوها: من أين أتيتِ بها؟ لأنها وأمها فقيرتان إلى حدٍّ ما؛ فضحكت وقالت إنها

ليست ياقوتة على الإطلاق، بل مجرد حجر أحمر.

وفي يومٍ آخر ارتدت قلادة فاتنة، أعظم فتنة من أي قلادة رآها أحدهم، أرق من أعظم قلادات الملكة رقة، مُرصعة بمئات من قطع الألماس، قطع كبيرة براقة تتألق ككل نجوم ليلة سماؤها صافية في صيف يونيو، فسألوها: من أين أتيتِ بها؟ لأنها وأمها فقيرتان إلى حدٍّ ما، لكنها ضحكت وقالت إنه ليس من الألماس، بل من مجرد حجارة بيضاء.

ثم أُستُدعيت في يومٍ إلى البلاط الملكي، لتمثُل أمام جلسة استماع يرأسها الملك والملكة، وارتدت تاجًا فوق رأسها من ذهب لامع نقي؛ هكذا قالت المُربية، يتألق كما الشمس، بل وسطع بأعظم مما يفعل تاج الملك نفسه، وارتدت قرطيّ الزمرد في أُذنيها، ووضعت الياقوتة الكبيرة كدبُّوس أنيق مُزخرَف على صدرها، والعقد المُرصع بالألماس يتلألأ على عُنقها، وظنَّ الملك ومن بعده الملكة أنها أميرة عظيمة أتت من مكان بعيد، فنزلا عن عرشيهما وذهبا ليُقابلاها.

لكن هُناك من أخبرهما بحقيقتها وأنها فقيرة إلى حدٍّ ما.

فسألها الملك: لماذا تضع تاجًا ذهبيًا فوق رأسها؟

ومن أين أتت به؟ إذ عرف أنها وأمها فقيرتان جدًّا؛ فضحكت وقالت إنه ليس تاجًا ذهبيًا على الإطلاق، بل بعض الأزهار الصفراء وضعتها في شعرها فحسب.

رأى الملك في الأمر غرابة؛ فدعاها للبقاء في البلاط حتى يُقرر ما سيفعلونه لاحقًا.

كانت جميلة جدًّا لدرجة أن كل من رأوها قالوا إن عينيها أكثر اخضرارًا من الزمرد، وشفتاها أكثر احمرارًا من الياقوت، وجلدها أكثر بياضًا من الألماس، وشعرها أكثر إشراقًا من التاج الذهبي.

لذا قال ابن الملك إنه يُريد الزواج منها، وسمح له الملك بهذا.

أتم الأسقف الزواج، وأُقيم عشاء عظيم، وبعدها ذهب ابن الملك إلى غرفة زوجته، وبمجرد وضعه ليده على الباب رأى رجلًا فارع الطول، ذا وجهٍ أسود مُفزع، يقف أمام الباب.

وقال صوت، وكأنه يترنم:

بحياتك لا تغامر

إنها لي، وهي شرعًا زوجتي.

ثم سقط ابن الملك على الأرض، وغرق في نوبة مرضية مجهولة.

وجاء الحرس وحاولوا اقتحام الغرفة؛ فلم يستطيعوا، وضربوا الباب ضربات مُتتاليات ببلطاتهم، لكن الخشب تحول إلى حديد صلب.

وفروا جميعًا في النهاية، خائفين جدًّا، بسبب الصراخ والضحك والبكاء والزعيق الصادرين من داخل الغرفة.

لكنهم في اليوم التالي استطاعوا دخول الغرفة، ولم يجدوا شيئًا فيها إلا دُخانًا كثيفًا أسود.

لأن الرجل الأسود قد جاء واختطف الفتاة غالبًا.

ووجدوا على السرير عُقدتين من عُشبٍ ذابلٍ وحجرٍ أحمر، وبعض الأحجار البيضاء، وبعض الأزهار الصفراء الذابلة.

تذكرتُ الحكاية أثناء وقوفي في قاع التجويف العميق، حكاية غريبة ونادرة الحدوث؛ فشعرت بالخوف، لا أرى أي أحجار ولا أزهار، وخشيت من الرجوع بشيءٍ منهم دون أن أدري، وفكرت في إلقاء تعويذة ما وجدتها في رأسي دون سابق إنذار، لأُبقي

الرجل الأسود بعيدًا.

لذا وقفت في منتصف التجويف بالضبط، وتأكدت أن لا شيء مما سبق وذكرت يتعلق بي، ثم تمشيت حول المكان، ألمس عينيّ وشفتيّ وشعري بطريقة خاصة، وهمست بكلمات غريبة علمتني المُربية إياها لأُبقي الأشياء السيئة بعيدًا عني.

ولما بدأت أشعر بالأمان تسلقت خارجة من التجويف، وسِرتُ في طريقي عبر الروابي والتجاويف والجدران إلى أن وصلت إلى نهاية الطريق، والتي كانت أعلى ارتفاعًا من كل ما مررت به، واستطعت رؤية كل الأشكال المختلفة على الأرض وهي مُرتَّبة في أنماط، كما رأيت مع الصخور الرمادية لكن في أنماط مختلفة.

تأخَّر الوقت، لا يُمكنني الرؤية بوضوح، ولكني رأيت من حيث أقف شيئين كجسمين بشريين عظيميّ الحجم راقدين على العشب.

واستمر السعي، لأجد غابة معينة في النهاية، لا يُمكنني وصفها؛ لأنها سرٌّ ولا يعرف أحد الطريق لدخولها، وقد وجدته بطريقة غريبة جدًّا؛ إذ رأيت حيوانًا صغيرًا يجري ليدخلها، فتبعته، عبر طريق ضيق ومُظلم للغاية، تحت أجامٍ وتشابكات أشجار

شائكة، واستحكم الظلام حينما وصلت إلى مساحة مفتوحة من نوعٍ ما في منتصف الطريق.

وهُناك رأيت أجمل مشهد رأيته في حياتي، لكن مُشاهدتي هذه استمرت لدقيقة واحدة؛ إذ هربت من المشهد مُباشرة، لأزحف خارجة من الغابة عبر نفس الممر الذي دخلت منه، وركضت وركضت بأسرع ما يُمكنني، لأني كنت خائفة؛ فما رأيته ليس جميلًا فحسب، بل هو غريب ورائع كذلك.

أردت وقتها العودة إلى البيت، لم أفكر في غير ذلك، لأني لا أعرف ماذا سيحدث إذا بقيت في الغابة.

كان الجو حارًا، رأيته يرتعش أمامي، وقلبي ينبض بقوة، وخرجت مني أثناء ركضي بُكاءات غريبة، لم أستطع منعها.

وغمرتني سعادة حين برز قمر أبيض من وراء تلٍّ مُستدير، ليُريني الطريق؛ فعدت عبر الروابي والتجاويف، ونزلت إلى الوادي المُغلق، ثم طلوعًا عبر الأشجار الشائكة، وعبر موقع الأحجار الرمادية.

وفي النهاية وصلت إلى بيتي.

كان أبي مُنشغلًا في غرفة مكتبه، ولم يُخبره الخدم بتأخري عن العودة إلى البيت، ولكنهم كانوا خائفين، يتسائلون ماذا عليهم أن يفعلوا، فأخبرتهم أني قد ضللت الطريق، ولم أخبرهم بالطريق الذي سلكته للعودة.

رقدت صاحية على سريري طوال الليل، أفكر فيما رأيت حينما خرجت من الممر الضيق، وبدا كل شيء مُشرقًا، لكن المناخ العام يكسوه الظلام.

الغريب أني مُتيقنة مما رأيت، وكنت كذلك طوال طريق عودتي، ولذلك أردت البقاء وحدي في غرفتي، وأحتكر الشعور بالسعادة لنفسي، فأُغلق عينيّ وأتظاهر أن ذلك الشيء هُناك، وأفعل كل ما كنت لأفعله إذا بقيت في تلك البقعة ولم يغمرني الخوف الشديد.

ولكن عندما أغلقت عينيّ لم أرَ شيئًا، فبدأت أفكر في مغامرتي مُجددًا، وتذكرت كيف كان الوضع قاتمًا وغريبًا في نهايته، وخشيت أن يكون كل ما مررت به مُجرد خُدعة، لأنه مُستحيل الحدوث.

بدا الأمر شبيهًا بحكايات المُربية التي لم أصدقها في الحقيقة، ولكني أعرف أن الخوف الذي شعرت به في قاع التجويف حقيقي، وقد برزت القصص

التي حكتها لي المُربية في صغري من ذاكرتي فتساءلت: هل ما أظن أني رأيته.. كان هُناك فعلًا؟ وهل يُمكن لقصص المُربية أن تكون قد حدثت منذ زمن بعيد؟

يا للغرابة.

كنت راقدة على سريري مُستيقظة في غرفتي، في آخر بقعة من بقاع المنزل، يتألق القمر على الجانب الآخر باتجاه النهر، فلم يسقط ضوءه على جدار غرفتي، وعم الهدوء أرجاء المنزل.

سمعت خطوات أبي وهو يصعد لأعلى، وبعدها بالضبط دقت الساعة الثانية عشرة، وساد هدوء زائد في المنزل ليبدو وكأنه خالٍ من الأحياء.

ورغم كل الظلام وانعدام صفاء الرؤية في غرفتي، سطع ضوءٌ واهن من نوعٍ ما عبر ستارة النافذة، وبمجرد أن قمت واستطلعت الأمر، رأيت ظلًا عظيمًا أسود للمنزل يُغطي الحديقة، وبدا كسجن يشنقون فيه الرجال، ومن وراء كل ذلك، يغشي البياض كل شيء، وسطع ضوء أبيض ليُنير الغابة نفسها، ومن بين الأشجار فجوات سوداء، ويسود الهدوء والصفاء، بلا غيوم في السماء، وأردت تذكر ما رأيت فلم أُفلح، لكن تذكرت حكايات المُربية التي

أخبرتني بها في طفولتي والتي ظننت أني نسيتها، لكن ها هي تطفو على سطح ذكرياتي مُجددًا، واختلط في عقلي مرأى الأشجار الشائكة والأحجار الرمادية والتجاويف الأرضية والغابة السرية، وحاولت بصعوبة التفرقة بين ما هو جديد وما هو قديم، أو إن كان كل هذا حُلمًا!

ثم تذكرت تلك الظهيرة الحارة، ذات صيف منذ عدة سنوات، حينما تركتني المُربية وحدي في مكان ظليل، وخرج الناس ذوو الوجوه البيضاء من الماء ومن الغابة، فلعبوا ورقصوا وغنوا.

وبدأت أتخيل أن المُربية أخبرتني عن شيءٍ كهذا قبل أن أراهم فعليًا، كل ما في الأمر هو أني لم أستجمع ذكريات ما أخبرتني به بالضبط.

ثم تساءلت: ربما كانت المُربية هي السيدة البيضاء نفسها! لأني أتذكر أنها كانت على نفس القدر من الجمال وبياض البشرة، وتملك نفس العينين السوداوين والشعر الأسود، حتى ابتسامتها وشكلها عندما تحكي لي قصصها وتبدأ بـ: في يوم من الأيام.. أو بـ: في زمن الجنيات..

لكن بعد تفكير أكثر تعمُقًا، لا أظنها كانت السيدة بيضاء الوجه نفسها؛ لأني أتذكر أنها اتخذت طريقًا

مُختلفًا في الغابة، ولا أظن أن الرجل الذي تبعنا هو الرجل الآخر، وإلا ما استطعت رؤية السر الرائع المُختبئ في الغابة السرية.

تفكرت في القمر؛ إذ رأيته يخرج من خلف أحد التلال، بعدما انتبهت لوجودي وسط الأرض البرية، حيث الأرض على شكل أصابع ضخمة، والجدران في كل مكانٍ، والتجاويف الغامضة والروابي المُستديرة الملساء.

تساءلت عن كل تلك الأشياء قبل أن ينتابني الخوف فجأة، لأني خشيت من إصابتي بالأمر، وتذكرت حكاية المُربية عن الفتاة التي دخلت الحفرة المجوفة ثم اختطفها الرجل الأسود في النهاية.

أعرف أني دخلت حفرة مجوَّفة بدوري، وربما كان الأمران مُتشابهين، وربما ارتكبت فعلًا شنيعًا.

لذا أديت التعويذة من البداية مرة ثانية، لمست عينيّ وشفتيّ وشعري بطريقة مُميزة فريدة، وقلت كلمات تنتمي للغة الجنيات القديمة، لأتأكد قدر استطاعتي أن اختطافي لن يحدث.

حاولت رؤية الغابة السرية مرة أخرى، وزحفت عبر الممر الضيق لأرى ما أعرف أنه هُناك، لكني لم

أستطع لسببٍ ما لا أعرفه.

لا تزال حكايات المُربية تدور في رأسي، وتذكرت حكاية منهم، عن شابٍّ ذهبَ يومًا ليصطاد، واستمر في ذلك طوال اليوم هو وكلابه، يجوبون كل مكان؛ عبروا الأنهار واخترقوا كل الغابات، وداروا حول كل المستنقعات، ولم يعثروا على أي حيوانٍ على الإطلاق، واستمروا في ذلك حتى غرقت الشمس واختفت خلف الجبال.

غضب الشاب إذ لم يعثر على مُراده، وكاد أن يرجع قبل أن يكبح جماح نفسه ويتعثر في ذكر أيل أبيض وجميل.

هتف الشاب بكلاب صيده، لكنهم لم يتبعوه، وأخذوا يعوون وكأنهم يئنّون، فهتف بحصانه، لكنه ارتجف وظل ثابتًا كجذع شجرة؛ فقفز الشاب من على متن حصانه وترك كلاب الصيد، وبدأ مُطاردة ذَكر الأيل الأبيض بمفرده.

ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى حل الظلام تمامًا، واسودَّت السماء دون نجمة واحدة تُلقي نورها على الأرض، وغاب ذكر الأيل الأبيض في الظلمات، وبرغم أنه قد أحضر معه بندقيته إلا أنه لم يُطلق رصاصة واحدة؛ لأنه أراد الإمساك به، وخاف أن

يضيع منه وسط الظلام، وبالفعل لم يغب ذكر الأيل عن نظره لحظة، رغم تمكن الظلام من السماء ومن المناخ كله، وظل ذكر الأيل يركض، فلم يعُد لدى الشاب أي فكرة عن مكان تواجده.

وخاضا معًا غابة ضخمة، هواؤها يمتلئ بالهمسات وأضواء ميتة خافتة خارجة من جذوع أشجار مُتعفنة، وعندما أحس الشاب أنه قد فقدَ أثر ذكر الأيل، رآه أمامه بكل بياضه وإشراقه؛ فركض بسرعة ليُمسك به، وركض ذكر الأيل أسرع منه فلم يتمكن الشاب من الظفر به.

واخترقا غابات ضخمة أخرى، وعبرا الأنهار واجتازا أدغالًا سوداء تفور فيها الأرض من تحت الأقدام، ويمتلئ الهواء بوهج المستنقعات(18)، ثم فر ذكر الأيل نازلًا إلى وادٍ صخري ضيق يحمل هواؤه رائحة الأقبية القديمة.

ورغم كل ذلك، استمر الشاب في المطاردة.

صعدا الجبال شاهقة الارتفاع، وسمع الشاب صوت الرياح الآتية من السماء.

واستمرت المطاردة إلى أن أشرقت الشمس، وعرف الشاب عندها أنه في ريفٍ لم يرَ مثله من قبل؛ وادٍ

جميل يمشي فيه تيار ماء براق، وتل مُستدير عظيم الحجم في منتصفه.

ونزل ذكر الأيل الأبيض إلى الوادي مُتجهًا نحو التل، وبدا أنه تعب من الركض فانخفضت سرعته، وانخفضت أكثر، ورغم أن الشاب مُرهق بدوره، إلا أنه ركض بأسرع ما يُمكنه، وتأكد أنه سيُمسك بذكر الأيل أخيرًا.

ولكن بمجرد وصوله لأسفل التل، وقد مدَّ يديه ليُمسك بالحيوان.. اختفى!

ابتلعته الأرض.

وبكى الرجل، يأسف بعدما فقد فريسته بعد رحلة صيد طويلة.

وإذ هو كذلك رأى بابًا في التل نفسه، أمامه بالضبط، فدخله.

كان الظلام دامسًا بالداخل، لكنه استمر في السير، وظنَّ أنه سيعثر على ذكر الأيل الأبيض.

وفجأة، ظهر نور، ثم ظهرت السماء، وأشرقت الشمس، وغنت الطيور على الأشجار، ورأى نافورة جميلة وعلى حافتها تجلس امرأة فاتنة الجمال، وهي

ملكة الجنيات، وقد أخبرته أنها تحولت إلى ذكر أيل أبيض لتُحضره إلى هنا، لأنها تحبه حبًّا جمًا.

ثم أحضرت كوبًا كبيرًا من الذهب المُرصع بالجواهر، أتت به من قصرها السحري، وعرضت عليه أن يشرب النبيذ منه؛ فشرب، وكلما شرب كلما تاق للشرب أكثر، لأنه نبيذ مسحور.

ثم قبَّل السيدة فاتنة الجمال، فأصبحت زوجته.

وبقي طوال ذاك اليوم وتلك الليلة هُناك في التل حيث تعيش، وعندما استيقظ، وجد أنه راقد على الأرض قريبًا من الموقع الذي رأى فيه ذكر الأيل أول مرة، وكان حصانه هُنالك وكذلك كلاب صيده ينتظرونه.

ونظر لأعلى، فرأى الشمس تغرق خلف الجبل.

ثم عاد لبيته، وعاش عمرًا طويلًا، لكنه لم يُقبِّل أي سيدة أخرى؛ لأنه قَبَّل ملكة الجنيات، ولم يشرب أي نبيذٍ شعبي أبدًا؛ لأنه شرب النبيذ المسحور.

وفي وقت مضى حكت لي المُربية حكايات سمعتها من جدتها الكبرى، وهي سيدة عجوز جدًّا كانت تعيش وحدها في كوخ وسط الجبال، وتتحدث معظم

حكاياتها عن تل مُعين، اعتاد بعض الناس زيارته والالتقاء عنده في الليل منذ زمن بعيد، ليلعبوا كل أنواع الألعاب الغريبة، وليفعلوا أمورًا فريدة أخبرتني المُربية عنها؛ لكني لم أفهمها.. والآن نسيت الناس كل تلك الأمور، ما عدا جدتها الكبرى، ولا يعرف أحد مكان التل حتى جدتها الكبرى نفسها.

وقد حكت لي قصة غريبة، تذكرتها فارتجفت.

ذكرت اعتياد الناس زيارة التل في وقت حرارة الصيف الشديدة، ليرقصوا لمدة طويلة.

وعندما يحل الليل، وتشتد الظُلمة قتامة بسبب الأشجار المُتواجدة، يأتي الناس واحدًا تلو الآخر، ومن كل الاتجاهات، عبر ممرٍّ سري لا يعرف عنه غيرهم، ويبقى اثنان منهم ليحرسا الباب، وإذ يتجمعون، يجب أن يُظهر كل منهم علامة مُلفتة للغاية، أرتني المُربية إياها قدر استطاعتها؛ إذ قالت إنها لم تستطع تأديتها بطريقة صحيحة.

ويأتي إلى المكان كل أنواع الناس؛ نبلاء الأصل والفلاحون، وشباب وبنات وبعض كبار السن، وكذلك بعض الأطفال الذين يجلسون ويشاهدون.

ويعم الظلام المكان حيث يقفون، عدا أحد

الجوانب، يقف فيه أحدهم ليحرق شيئًا رائحته حلوة وقوية، تجعلهم يضحكون، وعندها يرون الفحم يتوهج، ويتصاعد دُخان أحمر إلى السماء.

وعندما يكتمل اجتماعهم، ويأتي آخر واحد منهم، يختفي الباب ولا يعود موجودًا هُنالك، فلا يستطيع غيرهم الدخول ولو كانوا يعرفون أن هناك ما يحدث خلفه.

وأتى في مرة رجل نبيل غريب عن المكان، وقد سافر لمدة طويلة ثم تاه في الليل؛ فأخذه حصانه إلى وسط الريف البري، وهُناك، كل شيء مقلوب على عقبه.. هُناك أدغال مُفزعة، وأحجار ضخمة في كل مكان، وحُفر تحت الأقدام، والأشجار تُشبه المشانق، لهم أذرع سوداء كبيرة تمتد بطول الطريق.

وارتعب الرجل النبيل الغريب، وبدأ حصانه يرتعد طوال الطريق، ثم توقف فلم يتقدَّم خطوةً، نزل النبيل عن متنه وحاول شدَّه من اللجام فأبى التحرك، وقد غمرهما عرقٌ غزيرٌ كأنه الموت، فتركه النبيل ومشى وحده، وتعمق أكثر وأكثر في الريف البري حتى دخل مكانًا مُظلمًا، وسمع صراخًا وغناءً وبكاءً، بأصوات لم يسمع مثلها من قبل، وبدوا قريبين منه، لكن لم يستطع تحديد موقعهم بالتحديد؛ فبدأ يُنادي المُتواجدين.. وأثناء ذلك أحس بمن يقترب من

خلفه.

وفي أقل من دقيقة، كمموا فمه، وقيدوا ذراعيه ورجليه، ليقع ويغرق في إغماءة، وعندما أفاق، كان راقدًا على جانب الطريق في نفس الموضع الأول، حيث تاه لأول مرة، تحت شجرة بلوط ذابلة ذات جذعٍ أسود، وحصانه مُقيد إلى جواره.

فك قيد حصانه ثم امتطاه، وذهب إلى المدينة ليُخبر الناس بما حدث له، فاندهش بعضهم، لكن آخرين كانوا يعرفون عن الأمر بالفعل.

حينما يجتمع هؤلاء، ويختفي الباب فلا يدخل أحد بعدهم، ويكونون جميعًا بالداخل، فيلمسون بعضهم، ويرقصون في حلقة، يُغني أحدهم و يصنع آخر أصواتًا كالرعد بأداة في يده، وقد يسمع الناس تلك الأصوات الرعدية من بعيد في الليالي الهادئة، بل وفي أراضٍ أبعد بكثير من الأرض البرية، وبعض من يسمعونه ويعتقدون أنهم يعرفون ماهيته، ويُنصتون إلى تلك الأصوات العميقة المريعة، الشبيهة بالرعد فوق الجبال؛ فيصنعون إشاراتٍ على صدورهم حين يستيقظون على أسِرّتهم في أشد ساعات الليل ظُلمةً،

ويستمر الغناء والضوضاء لمدة طويلة، ويتمايل الناس في الحلقة للأمام والخلف، أما الأغنية نفسها

فيُنشدونها فبلغة قديمة، قديمة جدًّا، لا يعرفها أحد، الأغنية غريبة وكذلك أنغامها.

قالت لي المُربية إن جدتها الكبرى عرفت شخصًا، حينما كانت صغيرة السن نسبيًّا، تذكر بعض أجزاء تلك الأغنية، وحاولت المُربية أن تُغني بعضًا منها لي، فكانت أنغامًا غريبة؛ فاقشعر جسدي وأحسست بالبرودة، وتخدر لحمي وكأني وضعت يدي على شيء ميت.

يُغني رجل في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تُغني امرأة، وربما يؤدي المغني بمهارة لدرجة أن يقع اثنان أو ثلاثة من المتواجدين أرضًا، فيزعقون ويمزقون الهواء بأيديهم.

يستمر الغناء ويستمر تمايُل الناس في الحلقة للأمام والخلف ولمدة طويلة، ثم يظهر القمر فوق مكانٍ يسمونه (توليه يول)، يطلع عليهم فيُظهرهم وهم يتمايلون ويتأرجحون من جانبٍ إلى جانب، مع الدخان الكثيف ذي الرائحة الحلوة الذي يتموج صاعدًا من الفحم المحترق، ويسبح في دوائر من حولهم.

ثم يُحضر ولدٌ وبنتٌ صغيرين عشائهم إليهم، فيتناولونه؛ يحمل الولد كأسًا كبيرًا من الخمر

وتحمل الفتاة كعكة خبز، طعمهما يختلف عن الخبز العادي وعن الخمر الشعبي، ويُغيرون من طباع كلّ من يتذوقهما، ثم يقوم الناس مُجدَّدًا ليرقصوا ويأتون بأشياء سرية من أماكن خفية، ويلعبون ألعابًا استثنائية، ويرقصون في دوائر وراء دوائر وراء دوائر، يغمرهم ضوء القمر.

وفي بعض الأحيان يختفي بعضهم، فلا يُسمع عنهم بعدها ولا يعرف أحدٌ ما حدث لهم.

ثم يشربون مزيدًا من الخمر الفريد، ويصنعون أصنامًا ثم يعبدونها.

وقد شرحت لي المُربية كيف يصنعون الأصنام، في يومٍ خرجنا فيه لنتمشى، فمررنا بمكان به الكثير من الطين الرطب، فسألتني المُربية إذا كنت أحب أن أعرف شكل تلك الأشياء التي صنعوها فوق التل، فوافقت.

ثم طلبت مني أن أعدها ألا أُخبر إنسانًا حيًّا بكلمة واحدة عن الأمر، وإذا حدث وفعلت، سيُلقون بي في الحفرة السوداء مع الأموات؛ فقلت إني لن أُخبر أحدًا، فطلبت مني تكرار وعدي عدة مرات، ففعلت.

أخذت المُربية المِجراف الخشبي، وحملت كتلة

كبيرة من الطين ووضعتها في الدلو القصديري الخاص بي، وقالت إنه لو قابلنا أيُّ أحدٍ؛ فسأقول أني سأصنع من الطين بعض الفطائر بعد عودتي إلى البيت.

ثم تمشينا قليلًا حتى وصلنا إلى دغلٍ صغيرٍ نامٍ على جانب الطريق، فتوقفت المُربية واستطلعت الطريق من أعلى ومن أسفل، ثم صفرت صفارة خافتة عبر خط الشجيرات إلى الجانب الآخر من الحقل، ثم قالت:

- بسرعة!

وركضنا عبر الدغل، ثم زحفنا بين الشجيرات إلى أن ابتعدنا عن الطريق بمسافة بعيدة، ثم جلسنا تحت إحدى الشجيرات، والشغف يقتلني كي أعرف ماذا ستفعل المُربية بالطين، لكن قبل أن تبدأ أرغمتني أن أعدُها مُجددًا ألا أنطق بحرف عن الأمر، ثم عادت لتُصفر عبر كل شجيرة، وفي كل جوانب المكان، رغم أن الممر ضيق وعميق، ومن الصعب على أي أحد أن يمشي فيه.

ثم جلسنا، وأخرجت المُربية الطين من الدلو، وأخذت تعجنه بيديها وتقلبه وتفعل به أمورًا غريبة نادرة.

ثم خبأته تحت أوراق سلقٍ بري(19) كبيرة لدقيقة أو اثنتين، ثم أخرجته، ثم وقفت، ثم جلست، ثم دارت حوله بطريقة غريبة الأطوار، وتُغني قصيدة مُقفاة بنعومة طوال الوقت.

واحمر وجهها جدًّا.

ثم جلست مُجددًا وأخذت الطين بين يديها، وبدأت تُشكله على هيئة دُمية، لكن ليست كالدُّمى عندي في المنزل، بل أغرب دُمية قد أراها في حياتي، مصنوعة من طين فحسب، وخبأتها تحت شجيرة حتى تجف وتزداد صلابة، مُستمرة في أداء أُغنيتها، ويحمر وجهها أكثر وأكثر.

وتركنا الدمية هُناك مُخبأة وسط الشجيرات، لن يعثر عليها أحد.

وبعد عدة أيام سرنا في نفس الطريق، وحينما وصلنا إلى ذلك الجزء الضيق المُظلم من الممر، حيث تنزلق الأجمات نحو الضفة، طلبت مني المُربية أن أعدُها مُجددًا وكأنني لم أعدُها أول مرة، ثم تفحصت فيما حولها كما فعلت من قبل، وزحفنا تحت الشجيرات إلى المكان الأخضر الذي أخفينا فيه الرجل الطيني الصغير.

أتذكر كل ما حدث جيدًا، رغم أن سني وقتها كان ثماني سنوات، وقد مرت ثماني سنوات أخرى الآن، وقت كتابتي للأحداث.

للسماء لون بنفسجي غامق، وفي وسط الأجمة -حيث نجلس- توجد شجرة خُمان(20) عظيمة الحجم مُغطاة بالورود، وعلى الجانب الآخر تكتُّل من أكاليل المروج(21)، وحينما أفكر في ذاك اليوم الآن أشم رائحة أكاليل المروج وورود شجرة الخُمان بل وتملأ الرائحتان الغرفة، وإذا أغمضت عينيّ، أرى سطوع السماء الزرقاء وسُحبًا بيضاء صغيرة تسبح فيها، وأرى المُربية التي رحلت منذ زمن بعيد تجلس بقُبالتي لأتأكد أنها تُشبه تمامًا السيدة بيضاء الوجه الجميلة.

ثم جلسنا، وأخرجت المُربية الدمية الطينية من مخبئها السري، ثم قالت أنه يتوجب علينا تقديم احتراماتنا.

وأنها ستُريني ما يجب فعله، ويجب أن أُراقِب فعلها طول الوقت.

ففعلت كل أصناف الأمور الغريبة والشاذة مع الرجل الطيني الصغير، ولاحظت أنها تتصب عرقًا

وتذرف الدمع، رغم أننا تمشينا ببطءٍ شديدٍ، ثم قالت لي أن أُقدِّم احتراماتي، ففعلت كل ما فعلته بنفس الطريقة؛ لأني أُحب المُربية، ولأنها كانت لعبة غريبة فريدة من نوعها.

ثم قالت أن الواحدة مننا لو امتلأ قلبها بالحب بقدر وفير، سيكون الرجل الطيني صالحًا جدًّا معنا، إذا فعلنا أشياء معينة معه، وإذا امتلأ قلب الواحدة مننا بالكراهية بقدر وفير، فسيكون صالحًا بنفس القدر، لكن سنُضطر لفعل أشياء مختلفة وقتها.

فلعبنا مع الدمية لمُدة طويلة، وتظاهرنا بفعل كل أنواع الأشياء.

قالت المُربية إن جدتها الكبرى أخبرتها بكل شيء عن تلك الأصنام، لكن ما فعلناه لن يؤذي أحدًا؛ لأنها مجرد لعبة.

ثم حكت لي قصة عن تلك الأصنام أخافتني جدًا، وكان هذا ما تذكرته في تلك الليلة عندما كُنت مُستلقية مُستيقظة في غرفتي في الظلام الفارغ الشاحب، أُفكر فيما رأيته في الغابة السرية.

تحدثت المُربية عن سيدة شابة من الطبقة الأرستقراطية النبيلة كانت تعيش في قلعة كبيرة.

وكانت جميلة جدًّا، يُريد كل النُبلاء الزواج منها؛ لأنها كانت أكثر السيدات فتنة، أكثر من كل من وقعت عليهن أعينهم، وكانت طيبة مع كل الناس، وعرف الجميع عنها الصلاح.

ومع كونها مُهذبة مع النبلاء الذين رغبوا في الزواج منها، لكنها رفضت رغباتهم جميعًا، وقالت إنها لا تستطيع ترتيب أفكارها، وغير متأكدة من رغبتها بالزواج في الأصل.

والدها كان من اللوردات العظام، وقد غضب منها رغم أنها عزيزة على قلبه، وسألها: لماذا ترفُضين اختيار أحد الشباب العُزب الوسيمين الذين قدموا إلى القلعة راغبين في الزواج منكِ؟

فأجابت أنها لم تحب أحدهم بالقدر الكافي، وأنها يجب أن تنتظر، وإذا أصروا على مُضايقتها ستذهب إلى دير لتصبح راهبة.

لذا قال النبلاء الشباب إنهم سيبتعدون وينتظرون لعامٍ ويوم، وعندما يمر عامٍ ويوم، سيعودون ويسألونها أن تختار واحدًا منهم لتتزوجه.

تحدد الموعد ورحل النبلاء، ووعدتهم السيدة أن يوم زفافها من أحدهم سيكون بعد عامٍ ويومٍ.

ولكن الحقيقة هي أنها كانت ملكة الأناس الذين رقصوا على التل في الليالي الصيفية، وفي الليالي المُلائمة تُغلق باب غُرفتها، وتتسلل هي وخادمتها من القلعة عبرَ ممرٍّ سريٍّ لا يعرف به غيرهما، ويصعدان فوق التل في الأرض البرية.

وكانت تعرف من الأمور السرية أكثر من أي أحدٍ، وأكثر من أي أحدٍ سبقها أو جاء بعدها؛ لأنها لن تُخبر أحدًا عن أعظم أسرارِ الأسرار.

وكانت تعرف طريقة فعل كل الأمور الشنيعة؛ كيف تُدمِّر الشباب وتلعن الناس، وأمورًا أخرى لم أستطع فهمها.

اسمها الحقيقي هو السيدة (أفيلين)، أما الأناس الراقصون فيسمونها (كاساب) ومعنى الاسم: إنسان حكيم جدًّا في اللغة القديمة.

وكانت أعظم منهم طولًا، وبشرتها أجمل بياضًا، تلمع عيناها في الظلام كياقوتتين مُشتعلتين، وتُغني أغاني لا يستطيع الآخرون أداءها، وحينما تُغني يقعون جميعًا على وجوههم، ويعبدونها.

وتستطيع فعل ما يسمونه (عرض-شيب)، وهو

سحر جميل وخلاب جدًّا، فكانت تُخبر والدها اللورد العظيم أنها تُريد الذهاب إلى الغابة لجمع بعض الأزهار؛ فلما يسمح لها تذهب مع خادمتها إلى الغابة، إلى أرض لم تطئها أقدام من قبل، وتبقى الخادمة لتُراقب الوضع، ثم ترقد السيدة تحت الأشجار وتُغني أُغنية مُعينة وتَمُد ذراعيها، وتأتي أفاعي كبيرة من كل نواحي الغابة، يفحون وينزلقون داخلين وخارجين من بين الأشجار، يخرجون ألسنتهم المشقوقة وهم يزحفون على جسد السيدة، فيتجمعون عندها ويلتوون حولها؛ حول جسدها وذراعيها وعُنقها إلى أن يغطونها تمامًا ولا يبقى سوى رأسها ظاهرًا؛ فتهمس إليهم وتُغني لهم، فيلتفون حولها أكثر وأكثر، وأسرع وأسرع، حتى تأمرهم أن يرحلوا فيرحلون في الحال عائدين إلى مخابئهم.

وتجد على صدر السيدة حجرًا هو أجمل الأحجار وأكثرهم إثارة للفضول، يتشكل في هيئة تُشبه البيضة ومُلون بتشكيلة من الألوان؛ أزرق غامق وأصفر وأحمر وأخضر، كعلامات حراشف الأفاعي.

يسمونه حجر (جلايم) وباستخدامه يستطيع الإنسان فعل كل الأمور الرائعة، وقالت المُربية إن جدتها الكبرى رأت حجر (جلايم) بأم عينيها، وكان براقًا وحُرشفيًا، كما لو أنه فيه كل معاني الصفتين بكل لغات العالم.

وكان بمقدور السيدة أن تفعل أمورًا أخرى كثيرة باستخدام الحجر، لكن كل ما أرادته هو ألا تتزوج.

يُريد الكثير من النبلاء الزواج منها كما نعلم، لكن خمسة منهم أرادوا ذلك أكثر من الباقين؛ سير سايمون وسير جون وسير أوليفر ويُنادونه نول وسير ريتشارد ويُنادونه ديكون وسير رولاند.

وكلهم ظنوا أن السيدة نطقت بالحق حين قالت إنها ستختار واحدًا منهم لتتخذه زوجًا بعد عامٍ ويومٍ، لكن السير سايمون وحده، وهو رجل ذو براعة ومكرٍ، ظنَّ أنها تخدعهم جميعًا، ونذر نفسه لمُراقبتها ومُحاولة استكشاف حقيقة الأمر.

كان حكيمًا وصغير السن، وجهه كوجه فتاة، له ملمس ناعم؛ لذا تظاهر أنه سيترك القلعة ويأتي بعد عامٍ وليلة مع الباقين، وقال إنه سيمخر عباب البحر إلى بلادٍ أجنبية.

لكن الحقيقة هي أنه ابتعد لمسافة قليلة ثم عاد مُرتديًا زِيَّ خادمة، وحصل على وظيفة غاسلة صحون في القلعة.

وانتظر كثيرًا، وراقب واستمع، ولم يقل كلمة واحدة

لأي أحد، واختبأ في مواقع مُظلمة، يستيقظ ليلًا، ويبحث هُنا وهُنالك، وسمع أمورًا ورأى أخرى في غاية الغرابة، وكان كتومًا لدرجة بعيدة.. لدرجة أنه أخبر الفتاة التي تخدم السيدة أفيلين أنه شاب في الحقيقة، ويرتدي زِي الفتيات لأنه يحب السيدة حبًّا شديدًا، ويتمنى أن يعيش معها في بيتٍ واحد؛ فسعدت به الخادمة وأخبرته أمورًا كثيرة تأكد بعدها -أكثر مما سبق- أن السيدة أفيلين تخدعهم.

كان ماهرًا ومُخادعًا، أخبر الفتاة عدة كذبات استطاع بها الاختباء في غرفة السيدة أفيلين، خلف الستائر.

وظل ثابتًا لا يتحرك، إلى أن جاءت السيدة أفيلين.

رآها وهي تنحني لتنظر تحت السرير، ورفعت حجرًا، ظهر من تحته فجوة، أخرجت منها صنمًا من شمع شبيه بالصنم الطيني الذي صنعته المُربية عند الشجيرات.

التمعت عيناها كياقوتتين مُشتعلتين طوال الوقت، احتضنت الدُمية الشمعية الصغيرة بين ذراعيها وقرَّبتها من صدرها، وهمست وهمهمت ورفعتها لأعلى، ثم أنزلتها ثم رفعتها لأعلى وأنزلتها لأسفل، ثم أرقدتها على الأرض.

ثم قالت:

- سعيد هو من يُنجب الأسقف، من يُرشد المُتدين، من يتزوج الرجل ومن يتخذُ خليلة، من يُشكل خلية النحل، ومن يؤوي النحلة، ومن جمع الشمع الذي صُنع منه حبيبي الحقيقي.

ثم أحضرت قصعة ذهبية كبيرة من خزانة في تجويف بالحائط، ومن خزانة أخرى مُغلقة أخرجت برطمانًا كبير الحجم مليئًا بالنبيذ؛ فصبت بعض النبيذ في القصعة ووضعت دُميتها فيه برفق، وحممته به.

ثم أحضرت قطعة كعك مُستديرة صغيرة من خزانة أطباق، لتضعها على فم الصنم، ثم ثقبتها بحرص وغطتها.

راقب السير سايمون كل ما حدثَ وامتلأ قلبه بالفزع، رأى السيدة أفيلين وهي تنحني، وتفرد ذراعيها وتهمس وتغني.. وفجأة رأى إلى جوارها شابًا مليحًا، قبَّل شفتيها ثم شربا النبيذ من القصعة الذهبية، وأكلا الكعكة سويًّا.

وعندما أشرقت الشمس اختفى الشاب، وتبقت الدُمية الشمعية الصغيرة؛ فأخفتها السيدة تحت

سريرها مُجددًا في التجويف السري.

وعرف السير سايمون حقيقة السيدة أفيلين.

واستمرَّ يُراقبها وينتظر، حتى اقترب الموعد الذي حددته، الأسبوع المُقبل يمر على وعدها عام ويوم.

وفي تلك الليلة، وقف خلف الستائر ثابتًا لا يتحرك، يُراقبها، ورآها تصنع دُمى أخرى من الشمع.

صنعت خمس دُمى، وخبأتهم.

وفي الليلة التالية أخرجت دمية وحملتها، وملأت القصعة الذهبية بالماء، ثم أمسكتها من رقبتها وأغرقتها تحت الماء، ثم قالت:

- سير ديكون، سير ديكون، انتهى يومك.

ستغرق في الماء، ويشحب وجهك.

وفي اليوم التالي أتت الأخبار إلى القلعة أن السير ريتشارد والمعروف بسير ديكون قد غرق في النهر الضحل.

وفي الليل أخرجت السيدة أفيلين دُمية ثانية، وربطت حبلًا بنفسجيًّا حول عنقها، وعلقت الحبل

بمسمار مُرتفع عن الأرض ثم قالت:

- سير رولاند، ستنتهي دورة حياتك.

أراك مشنوقًا، في جذع شجرة تتعلق رقبتك.

وفي اليوم التالي جاءت الأخبار إلى القلعة، لقد شنق قُطاع الطرق السير رولاند في الغابة.

وفي الليل أخرجت دُمية ثالثة، وأغمضت خنجرًا في موضع القلب ثم قالت:

- سير نول، سير نول،

فلتتوقف حياتك.

وتخترق السكين قلبك.

وفي اليوم التالي أتت الأخبار إلى القلعة، أن السير أوليفر والمعروف بسير نول، تعارك في حانة مع رجل غريب ومات بعد أن طعنه في قلبه.

وفي الليل أخرجت السيدة أفيلين دُمية رابعة، وأحرقتها بنار مُشتعلة من فحم حتى انصهرت تمامًا، ثم قال:

- سير جون، إلى الطين تعود.

وفي نار الحُمى، ذكراك تتبدد.

وفي اليوم التالي عرفوا أن السير جون مات من حُمى حارقة.

وهُنا خرج السير سايمون من القلعة، وامتطى فرسَه وركضَ بأقصى سرعة إلى الأسقف، وأخبره بكل ما يعرف.

بعث الأسقف برجاله وقبضوا على السيدة أفيلين، ووجدوا كل ما اقترفته يداها.

وفي اليوم الذي يُفترض أن تتزوج فيه، بعد عامٍ ويومٍ من وعدها، حملوها بثوب نومها وعبروا بها البلدة، وربطوها في عمود خشبي وسط السوق، وأحرقوها حية، في وجود الأسقف، ومعها أصنامها الشمعية مُعلقين حول رقبتها.

ويقول من شهدوا الحادثة إنهم سمعوا صراخ الرجل الشمعي وهو ينصهر بفعل اللهب الحارق.

تفكرتُ في القصة، وتذكرتها وأنا راقدة على فراشي، وأحسست أني أرى السيدة أفيلين مُعلقة وسط السوق، يأكل اللهب الأصفر جسدها الجميل

الأبيض.

وتفكرت فيها كثيرًا لدرجة أني كدت أعيش تفاصيلها بنفسي، وتخيلت أني السيدة أفيلين نفسها، وأنهم قادمون إليّ في اليوم الموعود ليحرقوني بالنار، وأن كل أهل البلدة يُعلقون أبصارهم بي.

وتساءلت: هل اكترثت السيدة أفيلين؟ بعد كل الأمور الغريبة التي فعلتها! وهل يؤلم ما حدث لها؟ الحرق حية وهي مربوطة على عمود خشبي!

حاولت أن أنسى قصة المُربية، حاولت مرارًا وتكرارًا، وأن أتذكر السر الخفي الذي رأيته ظهيرة ذلك اليوم، وما هو موجود هُنالك في الغابة السرية، لكن كل ما رأيته هو الظلام، وتوهجًا خاطفًا فيه، ثم ذهب كل شيء، ورأيت نفسي أركض فحسب، ثم طلع عليَّ قمر عظيم مُكتمل البياض فوق تلٍّ مُستدير مُظلم.

ثم استرجعت كل القصص القديمة، وعادت إلى ذاكرتي وكل القوافي الفريدة التي اعتادت المُربية أن تُغنيها لي، هُناك بادئة مُعينة أتذكرها جيدًا:

- هالسي كامسي، هيلين ماستي(22).

اعتادت أن تُغني لي بكل نعومة حين تُريد مني النوم، واليوم أُغنيها لنفسي في ثنايا عقلي، ليأخذني النوم.

في الصباح التالي استيقظت وأنا مُتعبة، أردت النوم مُجددًا، بالكاد استذكرت دروسي، وأنجزت واجباتي، وانتابتني سعادة مُفرطة بعدما انتهيت؛ فتناولت غدائي وأردت بعدها الخروج.

لأكون وحدي.

كان يومًا مُشمسًا حارًا، فذهبت إلى منطقة ذات عشبٍ كثيفٍ جميل بمُحاذاة النهر، وجلست على شال أمي القديم، وقد أحضرته معي عن قصد.

السماء رمادية كاليوم الفائت، هُناك وميض أبيض من نوعٍ ما يأتي من خلف الغيوم، ومن حيث أجلس يُمكنني رؤية المدينة كلها من أعلى، هادئة وثابتة وبيضاء، وكأني أتطلع إلى صورة.

أتذكَّر أن المُربية علمتني على نفس هذا التل مُمارسة لعبة غريبة اسمها (مدينة طروادة)، فيها يرقص اللاعب ويدور حول نفسه مرة يُمنَة ومرة يُسرة وبنمط مُحدد، وفوق العشب بالأخص، ثم وبعدما يرقص ويدور لمدة طويلة كافية يسأله اللاعب الآخر

أسئلة، ولا يجوز لأحد أن يُساعده في الإجابة، سواء أراد ذلك أو لم يُرِد، ومهما كان المطلوب منك، ستشعر أنك تُريد فعله!

قالت لي المُربية إن ألعابًا كثيرة كتلك كانت موجودة وعرف بها بعض الناس، هُناك لعبة تستطيع بها تحويل أي إنسان إلى أي شيء تُريده، أخبرتها جدتها عن رجلٍ عرف فتاة تحولت إلى ثُعبان عملاق!

وهُناك لعبة أخرى عتيقة جدًّا، بها رقص ودوران حول النفس والتفاف كثير، وبها تستطيع اختطاف أحدهم من نفسه وتُخفيه في مكانٍ ما من اختيارك، وللمدة التي تُريدها، ويذهب جسده ليتمشى وهو فارغ، خالٍ من أي إحساس.

لكني ذهبت يومها إلى التل لأتأمل فيما حدث بالأمس، وفي سر الغابة، ومن حيث أجلس يُمكنني رؤية ما وراء المدينة، والنظر إلى الفتحة التي وجدتها، حيث قادني جدول صغير إلى ريف غير معروف.

وتخيلت أني عبرت الجدول مُجددًا، وكأني أعبر الطريق كله في رأسي، ثم وجدت الغابة، وزحفت تحت الشجيرات، ثم وفي غسق الليل، رأيت شيئًا أشعرني بأنني احترق بالنيران، وأريد الرقص والغناء

بحرارة، وأن أطير في الهواء؛ لأني تغيرت، لأني رائعة.

لكن ما رأيته حولي لم يتغير على الإطلاق، ولم يتقدم به الزمن ولم يتغير بي المكان؛ فتعجبت كيف يُمكن أن تحدث تلك الأمور، وتساءلت إن كانت قصص المُربية حقيقية في الأصل؛ لأن في النهار وفي الهواء الطلق يبدو كل شيء مُختلفًا عما هو عليه في الليل، حينما كنت خائفة، وظننت أني أحترق حية.

قصصت على أبي يومًا حكاية من حكاياتها، وكانت عن شبح ما، وسألته عن صحتها؛ فقال إنها ليست صحيحة على الإطلاق، وأن من يصدقون ذلك الهراء والنفايات المُشابهة هم العوام والجهلة من الناس وحدهم.

وقد غضب جدًّا من المُربية لهذا السبب ووبخها بعنفٍ، وبعدها اعتذرت للمُربية، ووعدتُها ألا أهمس ولو بكلمة عما تخبرني به، وإذا خُنت الوعد، فيلدغني الثعبان الأسود الكبير الذي يعيش في البركة بالغابة.

وأثناء جلوسي على التل تشككت في حدوث كل ما رأيت وسمعت، ما وقعت عليه عيناي كان مُدهشًا

ومُحببًا إلى نفسي، ولكني أعرف تلك القصة، وعايشتها بنفسي، وإذا كنت قد رأيتها حقًا ولم يختلقها عقلي أثناء مروره بالظلام؛ تلك الأغصان السوداء والبريق الساطع الذي ارتقى إلى السماء من فوق التل الكبير المُستدير، إذا كنت قد رأيت كل ذلك في الحقيقة، إذًا فيجب التمعُن والتفكير في كل الأشياء الرائعة والجميلة والمهولة، فرغبت إليهم، وارتجف جسدي، واشتعل جلدي من الحرارة، ثم سرت برودة في عروقي.

ونظرت إلى البلدة من أعلى؛ تحتفظ بهدوئها وثباتها، كما كانت دائمًا، كصورة بيضاء صغيرة.

وتفكرت أكثر في أن ما رأيته ربما يكون حقيقة.

كنت صغيرة ولا أظن في عقلي المقدرة أن يختلق أي شيء من هذا، هُناك ما يهتاج في قلبي بغرابة، يهمس لي طوال الوقت أني لم أختلق شيئًا، رغم أن هذا يبدو مُستحيلًا، خاصة وأن والدي وكل من أعرفهم يقولون إن تلك الحكايات مُجرد هراء كريه.

لم أتخيل أبدًا أني سأحكي لوالدي أو لأي شخصٍ آخر؛ لأني أعرف أنها كلمات لا طائل منها، وإذا فعلت سيسخرون مما أحكيه أو يوبخونني، لذا التزمت الصمت ولمدة طويلة، مُستمرة في التفكر

والتساؤل، واعتدت أن أحلم ليلًا بأمورٍ مُدهشة، لدرجة أني استيقظ في الصباح الباكر أحاول مُقاومة البكاء.

أنا خائفة دومًا كذلك بسبب الأخطار والأمور الشنيعة التي قد تحدث لي، إلا إذا أخذت حذري بالكامل، هذا إن كانت القصة صحيحة.

تتعلق الحكايات القديمة برأسي طوال الوقت، ليلًا ونهارًا.. كررت القصص وأعدتهم لنفسي مراتٍ ومرات، وتمشيت في الأماكن التي حكت لي عنها المُربية، وحينما كنت أجلس ليلًا في غرفة نوم الأطفال إلى جوار نيران المدفأة، أتخيل أن المُربية تجلس على المقعد الآخر، تحكي لي قصصها الرائعة بصوتٍ خفيضٍ خشية أن يسمعها أحد.

في الحقيقة كانت تُفضل أن تحكي لي عن تلك الأمور أثناء خروجنا إلى الريف، بعيدًا عن المنزل؛ لأن للحوائط آذان هُنالك، ولربما نقلوا الأسرار.

وإن كان سرًا عظيمًا، أعظم من باقي الأسرار، فنُخبئه في الأجمات ووسط الغابة، وأظن أنه من الممتع الزحف أسفل سياج الأشجار، والمشي ببطءٍ، ثم الدلوف من خلف الشجيرات، ونركض داخلين الغابة فجأة عندما نتأكد أن لا أحد يرانا، ونتأكد أن

أسرارنا لنا وحدنا، ولن يعرف أحد على الإطلاق أي شيء عما نفعل.

هذا ما أفعله الآن، وما فعلته وقتها.

وعندما نختبئ كما وصفت للتو، اعتادت أن تحكي لي كل أنواع غرائب الأمور، أتذكر أننا في يوم كنا وسط دغل أشجاره في لون البندق، يطلُّ على جدول الماء، ننعم بالحميمية والدفء رغم أننا كنا في شهر أبريل؛ الشمس حارة إلى حدٍّ ما وأوراق الشجر لا زالت في طورها الأول.

قالت المُربية إنها ستُريني شيئًا مُسليًا سيُضحكني، ثم أرتني حسب زعمها كيف نستطيع قلب منزلٍ كامل رأسًا على عقب، ودون أن يكتشف الأمر أي أحدٍ من سكانه، ستتقافز الأوعية والقدور وسينكسر الخزف الصيني النفيس والأطباق والكؤوس، وستنقلب المقاعد رأسًا على عقب، حاولت فعلها يومًا في المطبخ واكتشفت قدرتي على تنفيذها ببراعة، سقط صف كامل من الأطباق المتراصة على الرف المُخصص لها، أما منضدة المطبخ الصغيرة؛ فارتفعت ومالت بشدة أمام عينيّ المُربية حسب كلامها، لكنها خافت للغاية وشحب وجهها فلم أفعل ذلك مرة أخرى، لأني أحببتها.

وبعد ذلك كنا عند الشجيرات ذات اللون البندقي، أرتني مُجددًا كيف يُمكنني شقلبة الأشياء، وعلمتني كذلك طُرق صنع أصوات ضوضاء تُشبه القرع على الأسطح، ثم علمتني بعض أبيات الشعر المُقفى لأقولها في مواضع مُعينة، وعلامات مُميزة أرسمها بيدي في مواقف أخرى، وعلمتني أمورًا كثيرة كانت جدتها الكبرى قد علمتها إياها حينما كانت صغيرة السن.

هذه هي الأمور التي تذكرتها وتفكرت فيها في الأيام التي تبعت المسيرة الطويلة الغريبة، حينما ظننت أني رأيت سرًّا عظيمًا، تمنيت أن لو كانت المُربية معي لأسألها عن الأمر، لكنها رحلت منذ ما يزيد عن عامين ولا يعرف أحد إلى أين ذهبت ولا ما حلَّ بها.

وسأتذكر دومًا تلك الأيام ولو عشت إلى أرذل العمر؛ لأني شعرت حينها بالغرابة والتساؤل والتشكك؛ أشعر بالتأكد في لحظة ثم أُعيد تشكيل عقلي وأعود فأشعر بأن كل ما حدث لا يُمكن أن يحدث في الحقيقة، ثم أعود لحالتي الأولى مُجددًا.

لكني اتخذت حذري دومًا، لن أفعل أمورًا معينة قد تكون خطيرة، فانتظرت وتعجبت لزمن طويل، ورغم أني غير متأكدة من قدراتي على الإطلاق، لم

أجرؤ على التجربة لأكتشف الحقيقة.

ثم أتى يوم تأكدت فيه من صحة كل ما قالته المُربية، وكنت وحدي تمامًا حينما اكتشفت ذلك.

ارتجف جسدي بالكامل، بسعادة غامرة ورعب مُخيف؛ فركضت بأقصى سرعتي إلى واحدة من الأجمات التي اعتدت الذهاب إليها، تلك القريبة من الممر الضيق؛ حيث صنعت المُربية الرجل الطيني الصغير، فدخلتها راكضة وزحفت تحت شجيراتها ثم.. وحينما وصلت إلى البقعة التي يستقر فيها السر القديم، غطيت وجهي بكلتا يديّ واستلقيت على الأرض العشبية، وبقيت كذلك لساعتين، لا أتحرك، وأهمس لنفسي بأمورٍ غريبة ومُبهجة، وأخذت أُكررها مراتٍ ومراتٍ.

كان سطوعًا صادقًا ورائعًا للغاية، وحينما تذكرت القصة التي أعرفها، وتفكرت فيما قد رأيت، شعرت بحرارة الحماسة ثم برودة الارتعاش، وبدا أن الجو كله قد امتلأ بعطور وأزهار وغناء.

أردت في البدء صنع رجل طيني ضئيل الحجم كالذي صنعته المُربية منذ سنواتٍ بعيدة، وتوجب عليَّ اختراع خطط وحيل، وأتفحص ما حولي، وأُفكر في الأمور مُسبقًا قبل إنجازها، إذ لا يجب أن يعرف

أي أحد بما أفعل أو بما سأفعل، ولا حتى أن يحلُم به.

نفَّذت خطتي، وجلبت الطين إلى الشجيرات، وفعلت كل ما علمتني المُربية بل وصنعت صنمًا أجمل وأفضل مما صنعت، وبعدما انتهيت فعلت معه كل ما يُمكن تخيله من أفعالٍ وأكثر مما فعلت المُربية، إذ أحببته إلى مدى بعيد أكثر من أي شيء.

وبعد عدة أيام، أنهيت مذاكرتي وواجباتي ثم خرجت للمرة الثانية نحو الجدول الصغير الذي قادني إلى الريف الغريب؛ فتبعته ومشيت بين الشجيرات وتحت فروع الأشجار المُنخفضة وعبر النباتات الشائكة، طالعة فوق التل، وعبر الغابة المظلمة المليئة بالأشواك الزاحفة.

طريق طويل، طويل جدًّا.

ثم زحفت عبر الممر المُظلم، حيث يُصبح الجدول حجريًا وفي نفس مستوى الأرض، إلى أن وصلت إلى الدغل الصاعد فوق التل الثاني، ورغم أن أوراق الأشجار بدت واضحة وبارزة بالنسبة لي، لكن الظلام طغى على كل ما هُنالك، تحسست طريقي وكأنها أول مرة أزور فيها المكان، وراودني إحساس عجيب أن الدغل ظلَّ كما هو، لم يدخله غيري منذ

دخلته، صعدت ببطء إلى أن وصلت إلى التل الكبير غير المحجوب بأي شيء، تمشيت وسط الأحجار الرائعة ورأيت الفوور المريع مجددًا فوق كل ما هو هُنالك، السماء كانت أكثر إشراقًا، لكن حلقة التلال البرية نفسها ظلت مُظلمة في كل أرجائها، وكذلك الغابات المُعلقة بدت شنيعة ومُظلمة، أما الصخور الغريبة فقد طغا عليها اللون الرمادي بأكثر مما فعلَ من قبل، وعندما نظرت إليهم من أعلى، وأنا جالسة على الحجر الذي يتوسطهم من فوق الرابية، رأيت كل دوائرهم المُدهشة والدوائر وسط الدوائر، وتوجب عليَّ أن أجلس بثباتٍ لأُشاهدهم وهم يبدأون الدوران حولي، كل حجرٍ يرقص في مكانه، بل وكأنهم يدورون ويدورون في دوامة كبرى، وكأني أتوسط نجوم الكون، يدورون من حولي فأسمع تسارعهم عبر الهواء.

فنزلت إليهم ووقفت وسطهم، ورقصت معهم وغنيت أغاني استثنائية.

ثم ذهبت إلى الدغل الآخر لأشرب من التيار المُبهر ضوؤه في الوادي السري القريب، ووضعت شفتيّ على المياه الفائرة، ثم ذهبت إلى حافة البئر العميق الكائن وسط الطحالب اللامعة.

وهُناك.. جلست.

نظرت خلفي إلى ظلام أسرار الوادي، وأمامي إلى الحائط العشبي هائل الحجم، ومن حولي الغابات المُعلقة التي جعلت من الوادي ذي سرية عجيبة.

أعرف أني وحدي، ولا أحد يقف بجواري ليراني، فنزعت حذائي وجواربي وغمست قدميّ في الماء، ثم قلت الكلمات التي أحفظها جيدًا.

المياه ليست باردة على الإطلاق كما توقعت، بل كانت دافئة مُستساغة، كما لو أن قدماي تُلامسان الحرير أو كأن الحورية تُقبلهما، وهكذا قلت الكلمات الأخرى ورسمت العلامات بعدما انتهيت، ثم أخرجت قدميّ وجففتتهما بمنشفة أحضرتها معي، وأعدت ارتداء حذائيّ والجوارب.

ثم تسلقت الجدار حاد الانحدار، ووصلت إلى البقعة التالية حيث التجاويف والرابيتين الجميليتين وسلاسل التلال المُستديرة، وكل تلك الأشكال العجيبة.

لم أنزل إلى التجاويف هذه المرة، بل توجهت إلى النهاية مُباشرة، ثم صنعت إشاراتٍ على صدري بوضوح قدر استطاعتي، وتذكرت قصة كنت قد نسيتها لسببٍ لا أعرفه، عن شكلين يُسميان: آدم

وحواء.

ولا يعرف أحد معنى الاسمين إلا من يعرفون القصة بحق.

ثم تابعت السير إلى أن وصلت إلى الغابة والأسرار التي لا يجوز وصفها، وزحفت إليها بنفس طريقة عثوري عليها، وفي منتصف الطريق تقريبًا توقفت، ثم استدرت واتخذت وضع استعداد، وربطت منديلًا بإحكام حول عينيَّ، وتأكدت قبل كل شيءٍ أني لا أرى شيئًا على الإطلاق؛ لا غُصين شجرة ولا طرف ورقة شجر ولا نور السماء.

كان منديلًا قديمًا حريريًّا ولونه أحمر، وعليه بقع صفراء دارت حول نفسها مرتين أثناء ربطي للمنديل لتغطية عينيّ.

لا أرى أي شيء.

ثم بدأت أتحرك، وخطوة تلو خطوة تسارعت ضربات قلبي، هُناك ما طلع عبر حنجرتي وكاد يخنقني، أردت الصراخ فلم أستطع، تمالكت زمامي وأغلقت شفتيّ، وأكملت المشي.

تعلقت الأغصان الكبيرة بشعري أثناء سيري، ومزق

الشوك ملابسي، ولم أتوقف لحظة في سعيي نحو نهاية المطاف.

ثم توقفت، وقدمت ذراعيّ للأمام، وانحنيت.

ثم دُرت حول نفسي، أتحسس الأرض بيديّ، فلم أجد شيئًا.

ثم دُرت حول نفسي مرة أخرى، وتحسست الأرض فلم أجد ما أصبو إليه.

ثم دُرت حول نفسي للمرة الثالثة، وتحسست الأرض بصبر..

لأكتشف أن القصة حقيقية، إنها حقيقية منذ البداية!

وتمنيت حينها ألا تمر الأعوام وألا أُضيع مزيدًا من الوقت، بانتظار سعادة أبدية.

لا بُدَّ وأن المُربية من الأنبياء، كمَنْ قرأنا عنهم في الكتاب المُقدَّس، تبيَّن أن كل ما حكته لي هو حقيقة، وقد حدث كل ما قالت أنه سيحدث منذ عرفتها.

وهكذا عرفت أن عقلي لم يختلق السر، إنه موجود،

كما تأكدت من حقيقة قصصها.

لكن.. هُناك أمرٌ آخر حدث في ذات اليوم.

ذهبت للمرة الثانية إلى المكان السري، كنت عند حافة البئر العميقة واقفة على الطحالب؛ فانحنيت ونظرت لما بالداخل، وعرفت وقتها حقيقة السيدة البيضاء التي خرجت من الماء في الغابة منذ زمن بعيد، حين كنت صغيرة السن.

وعم الارتجاف جسدي؛ إذ يعني هذا الكثير.

ثم تذكرت أن المُربية سألتني أن أحكي لها عن ذوي الوجوه البيضاء بعدما رأيتهم؛ فأخبرتها بكل شيء رأيته، واستمعت لي ولم تقُل شيئًا لمدة طويلة.. طويلة جدًّا، ثم قالت في النهاية:

- سترينهم مرة أخرى.

ففهمت سبب ما حدثَ وما سيحدث.

وفهمت سبب وجود الحوريات، وكيف يُمكنني مُقابلتهم في أي مكانٍ، وأنهم سيُساعدونني دومًا، وأنه عليّ أن أبحث عنهم وسأجدهم في كل أنواع الأشكال والمظاهر الغريبة.

ويجب أن أعترف، بدون الحوريات لم أكن لأجد الأسرار، ولم يكن ليحدث أيُّ أمرٍ مما حدث، لقد أخبرتني المُربية عنهم منذ زمن بعيد، لكنها سمتهم باسم آخر، ولم أفهم حكاياتها عنهم ولا ما تعنيه بكلامها، كل ما أعرفه أنهم في غاية الغرابة.

ومنهم نوعان: المُظلم والمُشرق؛ لكن النوعين مُحببان ورائعان، وقد رأى بعض الناس نوعًا واحدًا منهما لكن من النادر أن ترى النوعين.

وغالبًا ما يظهر النوع المُظلم أولًا ثم يظهر النوع المُشرق.

لن أنسى الحكايات الاستثنائية عنهما.

وتأكدت من معرفتي بحقيقة الحوريات بعد يومٍ أو اثنين من رحلتي إلى المكان السري.

ولقد علمتني المُربية كيف أستدعيهم؛ فحاولت وقتها لكني لم أُفلح لأنني لم أفهم ما تعنيه، وظننته كلامًا لا معنى له.

ثم هيأت عقلي.. سأفعلها مُجددًا؛ فذهبت إلى الغابة التي رأيت فيها ذوي الوجوه البيضاء يخرجون من البركة، وحاولت استدعاءهم مُجددًا.

فخرجت "ألانا" الحورية المُظلمة، وحولت بركة الماء إلى بِركة من نار..

---

(11) جلد التغليف المغربي مصنوع باليد من جلود الماعز، صُنع في البداية من الماعز المغربي، ثم ماعز أنجورا التركي، وحاليًا يُصنع من جلود ماعز جنوب أفريقيا.

(12) كل الألفاظ الغريبة المذكورة من اختلاق خيال المؤلف.

(13) Nymph: أرواح تسكُن الطبيعة، تتشكل في هيئات إناث، وتختلف عما يُعرف بال fairies، ذوات أحجام عُقلة الإصبع والأجنحة الصغيرة.

(14) **لفظ جديد من اختلاق المؤلف، وسيتكرر عدة مرات.**

(15) **القُراص** Nettle: **عشب ذو إبر شائكة.**

(16) Fir trees: **شجر الشوح أو التنوب، من الفصيلة الصنوبرية، تشتهر فروعها بتوفر الزيوت الطيارة ذات الرائحة النفَّاذة فيها، ولها استخدامات طبية عدة.**

(17) World without end, amen: **المقطع الأخير من (المجدلة الصغرى) وهي صلاة مسيحية لتمجيد الرب.**

(18) Will-o›-the-wisps: **ضوء مائل للزرقة، يُرى أحيانًا عند المستنقعات والمقابر، ناتج عن احتراق غاز الميثان الطبيعي، الناتج من تحلل النباتات.**

(19) Dock-leaf: واسمه العلمي Rumex obtusifolius L، نبات مُعمر من العائلة البطباطية، أوراقه مُستديرة ويتعدى طولها الثلاثين سم.

(20) Elder tree: **أو** elderberry، شجرة الخمان ذات الأزهار البيضاء والتوت.

(21) Meadowsweet: **نبات عشبي مُعمر من الفصيلة الوردية.**

(22) Halsy cumsy, helen musty: تبدو جملة من لاتينية وإنجليزية مشوهة، هالسي وهيلين اسمين لسيدتين.

خاتمة

"قصة غريبة جدًّا."

قالها كوتجريف وهو يُسلم الكتاب الأخضر إلى أمبروز، الرجل المُنعزل بإرادته عن العالم.

- رأيت في الكتاب نزعة لمُعالجة مسائل مهمة وممتازة، لكن هُناك أمورًا عدة لم أُدرك المغزى منها، ذُكرت (الحوريات) على سبيل المثال عدة مرات، وخاصة في الصفحة الأخيرة، فماذا تقصد بهن؟

- حسنًا، أعتقد أنها أشارت عدة مرات طوال المخطوطة إلى (عمليات) مُعينة تنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ كتقاليد أو أعراف، بعض تلك العمليات هي مُجرد بدايةٍ للتعرف على حدود العِلم بأخذ ما وصل إليهم في الاعتبار، أو بالأحرى حسب الخطوات التي قادتهم إليه، وهي طرق كثيرة ومتنوعة.

حسب تأويلي؛ فالإشارة إلى (الحوريات) هي إشارة إلى إحدى تلك العمليات.

- وهل تؤمن بوجود مثل تلك الأشياء؟

- أظن ذلك، نعم، أعتقد كذلك بقدرتي على إعطائك دلائل مُقنعة في تلك النقطة، ولكني أخشى أنك تجاهلت دراسة الخيمياء، هذا مؤسف لأن الرمزية هُنا وفي كل الأحوال خلابة جدًّا. وبالإضافة إلى ذلك، لو اطلعت على كُتبٍ مُعينة تختص بالموضوع لكان بوسعي إرشاد عقلك لاسترجاع بعض العبارات التي ربما تشرح لك جانبًا كبيرًا من المخطوطة التي أتممت قرأتها بالفعل.

- جميل، ولكني أردت التأكد إذا كنت تظن بجدية أن هُناك أساسًا حقيقيًّا يدعم تلك الخيالات. هل النص مجرد مقطوعة شعرية؟ أم حلم إنسانة غلبها فضولها فأطلقت العنان لنفسها؟

- لا أستطيع الرد سوى أنه من الأفضل لعموم الناس -بلا شك- أن يعتبروا كل ما قرأته مُجرد حُلم، ولكنك تسأل عن اعتقادي الشخصي وهو اعتقاد يخوض في الجانب المُعاكس لاعتقادك. والحقيقة أنه ليس مُجرد اعتقاد بل هي معرفة حقة.

يُمكنني أن أحكي لك عن حالات معروفة تعثرت مُصادفة في أنواع من تلك العمليات، وانبهروا بحدوث نتائج غير متوقعة بالكُلية، وفي الحالات التي أُفكر فيها حاليًا لا احتمالية مُطلقًا لاقتراح

ما يُسمى (أفعالًا تنبع مما وراء الوعي) أيًا كان نوعها، فالناس يرون ما يُريدون رؤيته، لن يتخيل طالب في مراحل دراسته الأولى قُدرات إسخيلوس (23) الشعرية وهو يتهادى ببطءٍ وبكل ميكانيكية في الدراسة الابتدائية لتصريف الأسماء في اللغة الرومانية القديمة.

- ولكنك لاحظت بنفسك غموض الأمر؟

لم يبدُ على أمبروز أنه سمعه إذ استكمل كلامه:

- وفي هذه الحالة بالذات، يجب أن نسمح لغرائزنا أن تُملي أوامرها؛ فالكاتبة لم تُفكر أبدًا أن ما كتبته سيقع في أيادٍ أخرى.

أرجو أن تفهمني، المُمارسة هُنا ذات صفة عالمية ولأسباب مهمة للغاية. وعلى سبيل المثال، فالأدوية القوية والفعالة والتي هي ضرورية وشديدة السُمية كذلك، تُحفظ في خزائن مُغلقة.

افترض معي أن الفتاة وجدت مفتاح خزانة منهم صُدفة، وشربت حتى الموت!

لكن في معظم الحالات، سيُجاز هذا البحث لأغراض تعليمية، ونكتشف أن القُنينات تحوي

إكسيرًا ثمينًا بالنسبة للإنسان الذي صاغ المفتاح لنفسه وبكل صبر.

- ألا تُريد الدخول في تفاصيل؟

- لا وبكل صراحة، لا أريد ذلك، يجب أن أُبقيك هكذا، غير مُقتنع، ولكن.. هل رأيت كيف تشرح المخطوطة حديثنا بالأسبوع الماضي؟

هز كوتجريف رأسه بغير رضا ثم سأله:

- هل لا زالت الفتاة حية؟

- كلا، كنت مع من وجدوا جثتها، عرفت والدها معرفة جيدة؛ كان مُحاميًا وكان يتركها وحدها كثيرًا، لا يُفكر سوى في العقارات وعقود الإيجار، وقد وصلت الأخبار إليه في هيئة مفاجأة مريعة.

لقد اختفت ذات صباح، أظنه بعد عامٍ تقريبًا من كتابتها لما قرأت.

استدعوا الخدم فتحدثوا عما كانوا يخفونه، ووضعوا تفسيرًا وحيدًا وهو تفسير غير صحيح بالنسبة للعوام.

اكتشفوا الكتاب الأخضر في بُقعةٍ ما من غرفتها،

قرأناه ثم بحثنا عنها.

وجدتها في المكان المروع الذي وصفته، راقدة على الأرض أمام الصنم.

- أهُناك صنم؟

- نعم، كان مُختبئًا وسط النباتات الشائكة والعشب الأرضي الكثيف يُحيط به، كان ريفًا بريًا معزولًا، تعرف كيف وصفته بالطبع، ولكنك ستتفهم بالتأكيد أنها عظمت من وضع الألوان؛ مُخيلتها كطفلة ستجعل الأطوال أكثر طولًا والأعماق أكثر عُمقًا عما هُم عليه في الحقيقة، ومن سوء حظها أنها امتلكت أكثر مما هو مُجرد مُخيلة، ويُمكنني القول أنها نجحت في تحويل الصورة في عقلها بدرجة ما إلى كلمات، كأفضل مما يُمكن لرسام ذي مُخيلة خصبة أن يصف مكانًا غريبًا ومهجورًا كتلك الغابة.

- والفتاة.. كانت ميتة؟!

- نعم، سممت نفسها في الوقت المناسب، في الحقيقة لا يُمكنني مهاجمتها ولو بكلمة واحدة، وبالمعنى المعروف، أتتذكر القصة التي حكيتها لك؟ السيدة التي رأت النافذة تُحطم أصابع ابنتها؟

- وماذا عن التمثال؟ ماذا يُصور؟

- كان شبيهًا بالصناعة الرومانية، ومن صخرة لم يسود لونها رغم مرور القرون، بل أصبحت بيضاء مُنيرة، نمت النبات الشائكة من حوله وحجبته عن الأنظار.

أعرف أن أتباع تعاليم قديمة جدًّا، كانوا يستخدمون نفس هذا الشكل في العصور الوسطى لأغراضهم الخاصة، وفي الحقيقة اندمجت التعاليم في ميثولوجيا (24) عقائد يوم السابات (25) الرهيبة، وستلاحظ بالطبع أن من مُنحوا رؤية ذاك البياض البراق كفتاتنا بالصدفة الواضحة، أقصد بالصدفة الصريحة، توجب أن يُعصبوا أعينهم وقت الاقتراب الثاني، ولهذا دلالة مُهمة أكيدة.

- وهل لا يزال الصنم قائمًا هُناك؟

- كلا، جئنا بأدوات وحطمناه، أضحى رمادًا وقطعًا صغيرة.

ثم صمت للحظات أردف بعدها:

- أتعلم؟ لا يُفاجئني استمرار التقاليد القديمة أبدًا، يُمكنني تسمية عدة أبرشيات ومناطق ريفية إنجليزية

تعرف تلك التقاليد؛ تقاليد موجودة في المجتمعات السرية، وهي شبيهة بالتي استمعت إليه فتاتنا في طفولتها، ويُعد زخمًا بالغ القوة والتأثير رغم سريته.

بالنسبة لي الأمر كله يتعلق (بالقصة) نفسها لا (بتتمتها)، وهي تتمة غريبة وشنيعة؛ لأني أمنت دومًا بأن العجائب مصدرها روح الإنسان.

---

(23) Aeschylus إسخيلوس (525 ق.م - 456 ق.م.): وهو روائي مسرحي وأبو التراجيدية اليونانية.

(24) الأساطير.

(25) ليوم السبت أهمية دينية كبيرة، فهو إجازة من العمل وتفرغ للعبادة عند اليهود، وعلى جانب آخر، يُطلق على منتصف الليلة التي يجتمع فيها السحرة والمشعوذون، وهو هُنا إشارة إلى الطقوس الوثنية التي يُمارسها ذوو الوجوه البيضاء.

(الوجوه البيضاء)

رواية قصيرة لكاتب الرعب والغرائبيات الويلزي أرثر ماكين، أتم كتابتها بنهاية عام 1980 ونُشرت لأول مرة عام 1904 في مجلة هورليك الأدبية، ثم أُعيد طباعتها ونشرها وسط مجموعة قصصية أسماها (منزل الأرواح) عام 1906، وهي واحدة من أعظم قصص الرعب عبر التاريخ، ويُمكن وصفها بأنها القصة التي ألهمت لافكرافت بكتابة تفاصيل عوالمه الغامضة عن أساطير كتولو أو الكثولو ميثوس.

عن الكاتب

آرثر لويلين جونز (1863-1947) والمعروف باسمه الأدبي أرثر ماكين، عُرف باسهاماته وكتاباته في أدب الرعب والفانتازيا والماورائيات، والنوع الأدبي المُتفرع من الأدب التنبؤي أو المُستعرِض للخيال المُسمى (الخيال الغريب Weird fiction) وفيه تُدمج الأساطير والخرافات بحقائق علمية، ويُثار خيال القارئ وتتم إخافته دون أن يرى ما يُخيفه بشكل مباشر أو يعرف كنهه؛ فحسب تعريف لافكرافت: ستجد جريمة قتل غير مفهومة، وجو مُكهرَب بسبب الخوف من قوى مُخيفة غير مرئية.

حازت روايته القصيرة (الإله العظيم بان) على شهرة واسعة، وقال عنها ستيفن كينج أنها أعظم قصة رعب مكتوبة بالإنجليزية، عُرف كذلك بقصته القصيرة (الرُماة) المنشورة في صحيفة أخبار لندن المسائية يوم 29 سبتمبر 1914، والتي قُرأت على نطاق واسع إلى أن تم إعتبارها حقيقة! وساهمت في خلق الأسطورة الشعبية وانطلاق إشاعة (ملائكة مونس) عن الملائكة الذين حموا جنود الجيش البريطاني في معركة مونس في بداية الحرب العالمية الأولى.

لقبه كاتب الرعب الأعظم هوارد فيليبس لافكرافت بواحد من أربعة أسياد لرعب الماورائيات الحديث؛ مع ألجرنون بلاكوود ولورد دونساني و إم. أر. جيمس، استخدام ماكين للخلفيات اللندنية والويلزية، حيث تكمن أهوال قديمة شريرة تؤثر على المُعاصرين، وكذلك الإشارات إلى الطقوس والكائنات غير المعروفة أثرا على كتابات لافكرافت بصورة مُكثفة، فوجدناه يربط غرائبه بمعيشته في نيو إنجلاند ويستخدم نفس طرق ماكين في التخويف من المجهول.

أبدى ماكين تفوقًا في مجال الكتابة الأدبية منذ صغره، رغم فشله في الالتحاق بالجامعة بسبب ظروف فقر عائلته، نشر أول أعماله عام 1881 في سن الثامنة عشرة وهي قصيدة طويلة باسم (إلوسينيا)، عاش ماكين بعدها في لندن حياة من الفقر رغم عمله كصحفي ومُحرر ومُعم للأطفال، عام 1884 نشر عمله الثاني "تشريح التبغ" والذي نجح به في تأمين عمل مع الناشر جورج ريدواي كمُحرر، وفتح له هذا أبواب جديدة كالترجمة بعض الأعمال من اللغة الفرنسية مثل مذكرات كازانوفا، استخدم ماكين في ترجماته لغة أصبحت مقياسًا للمُترجمين إلى الإنجليزية ولسنوات عديدة.

بدأ ماكين عام 1890 النشر في المجلات الأدبية وكتابة قصص تأثرت بالعرب القوطي المُميز لأعمال روبرت لويس ستيفنسون، ومع استمراريته وصل إلى أول نجاح كبير له برواية الإله العظيم بان المنشورة عام 1894 تماشيًا مع الحركة الفنية الجمالية المُتنامية في ذلك الوقت، كتب ماكين بعدها عام 1895 رواية (المُحتالون الثلاثة) وهي مُكونة من عدة حكايات مُتشابكة تُعد من أفضل ما كتب ونشر.

في وقت لاحق من ذلك العام وبسبب الفضيحة التي أصابت الكاتب المعروف أوسكار وايلد -صاحب رواية صورة دوريان جراي- ومحاكمته بممارسة أفعال فاضحة مع رجال أخرين، أصبح من الصعب على ماكين نشر أعماله المُخيفة التي تعكس حالات من التدهور الأخلاقي والثقافي، وقد كتب بعضًا من أفضل أعماله بالفعل خلال تلك السنوات لكنها نُشرت لاحقًا، ومنها تل الأحلام والهيروغليفية وشظية من الحياة والوجوه البيضاء.